الجامعة الإسلامية ـ غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم التاريخ والآثار

العيون والجواسيس في بلاد الشام في العهدين الزنكي والأيوبي
(522 – 648هـ/ 1128- 1250م)

إعداد الباحث
فتحي أحمد محمد حماد

إشراف
الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ (بحث تكميلي) في قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة ـ فلسطين

1432هـ – 2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

صدق الله العظيم

(سورة آل عمران : آية - 18)

الإهداء

- إلى والدتي ووالدي وكل من له حق عليّ .
- إلى زوجاتي .. وأبنائي الأعزاء .
- إلى من هم أكرم منا جميعاً الشهداء

"وخاصة أخي حسام وابن أخي يحيى حماد" .

- إلى الجرحى .. والمصابين .. والمعتقلين

"وخاصة أخي مجدي" ..

والمبعدين .. والمنفيين .. واللاجئين ..

والمرابطين .. والمجاهدين .. و السجناء .

- إلى الحكومة الرشيدة الشرعية في غزة وعلى رأسها .. د. إسماعيل هنية "أبو العبد".
- إلى أركان وزارة الداخلية وكل منتسبيها.

الباحث

فتحي حماد

شكر وعرفان

انطلاقاً من واجب الوفاء ، ورد الجميل ، فإنني أنتهز هذه الفرصة ، لأتقدم بوافر الشكر والتقدير وعظيم الامتنان والعرفان لكل من ساهم معي في إخراج هذه الدراسة إلى حيز الوجود ، وأخص بالذكر مشرفي الفاضل الاستاذ الدكتور/ **رياض مصطفى شاهين** ،الذي شرفني بقبوله الإشراف على هذه الرسالة ، وحباني بواسع علمه وتجربته ، ولم يبخل علي بوقته وجهده وتوجيهاته وتزويدي بالكتب من مكتبته فجزاه الله خير الجزاء وجعل ذلك في ميزان حسناته

وأتقدم بعظيم الشكر إلى أساتذتي في قسم التاريخ بكلية الآداب.

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى الدكتور/ **كمالين شعث**

رئيس الجامعة الإسلامية بغزة فجزاه الله عنا خير الجزاء .

كما أوجه خالص شكري وعرفاني لكل من مد لي يد العون أثناء إعداد هذه الرسالة وأخص منهم الإخوة أعضاء لجنة التحكيم على ما بذلوه من الوقت والجهد .

كما لا أنسى أن أسجل شكري وتقديري إلى زملائي وإلى كل من شاركني الجهد وساندني بالدعاء وشجعني على مواصلة دربي فاستحقوا مني كل عرفان وتقدير .

فإلى هؤلاء جميعاً أتوجه بخالص الشكر والتقدير

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه

الباحث

فتحي حماد

ملخص الرسالة

يُعد عمل العيون والجواسيس من أهم الطرق والأساليب التي لجأت إليها الأمم والمجتمعات و الدول على مر التاريخ لمواجهة أعدائها، لا سيما في الأعمال الحربية، وهذا ما قامت به الدولة الإسلامية في العهدين الزنكي والأيوبي، الذي شهد أغلب فترات الصراع الإسلامي الفرنجة في بلاد الشام. لقد درس العديد من الباحثين والمؤرخين فترة الصراع الإسلامي الفرنجة، وعالجوها من ناحية تاريخية وسياسية وعسكرية، وتسلسل للأحداث؛ إلا أنهم لم يتعرضوا بالدراسة التحليلية لدور العيون والجواسيس وأهميته في مجريات ذلك الصراع التاريخي، باستثناء بعض الدراسات السطحية. لذلك جاءت هذه الدراسة المعنونة بـ العيون والجواسيس في بلاد الشام في العهدين الزنكي والأيوبي؛ للتعرف على عمل العيون وأهميتها، والأقسام التي كانت تنضوي تحتها، وأهم الوسائل والأساليب التي كانت تستخدمها في تلك الحقبة التاريخية المؤثرة في حياة الأمة الإسلامية. وقعت الدراسة في أربعة فصول؛ حيث تعرض الفصل الأول للأصول اللُغوية والتاريخية لعمل العيون والجواسيس، إضافة إلى البحث عن الأصول والأحكام لعملهم في الشريعة الإسلامية من خلال البحث والاستدلال، بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وآراء الفقهاء، والرسائل والمعاهدات، إضافة إلى استعراض تاريخي لعمل العيون والجواسيس منذ عند القدماء وانتهاءاً بالعصر العباسي الأول، الذي بانتهائه تبدأ الحدود الزمانية للدراسة. الفصل الثاني، عالج تركيبة جهاز العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي، والتي شملت وحدة البريد، وحدة الحمام الزاجل، وحدة اليزك (الاستطلاع)، وحدة التجسس، وحدة الكمائن، وحدة التحقيق، وحدة الترجمة، وحدة الشيفرة، ووحدة الاستقطاب السياسي. أما الفصل الثالث فقد بحث في صفات وواجباتو أساليب ووسائل عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي، والتي شملت، أسلوب الخدعة والاحتيال، والتجسس بأساليبه المختلفة والمتعددة، وكذلك أساليب استخدام المدنيين في الحصول على المعلومات، إضافة إلى الأساليب العسكرية. الفصل الرابع بحث في أهمية دور العيون والجواسيس في الصراع الإسلامي الفرنجة في العهدين الزنكي والأيوبي؛ حيث كان لها دور بارز في المعارك والأعمال الحربية، وحماية الأمن الداخلي، وكشف المؤامرات، ومكافحة الأنشطة التجسسية المعادية، ومقدرتها على تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة وزعزعة استقرارهم. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي كان ممنهجاً وضمن إطار تنظيمي واضح، الأمر الذي أدى إلى بروز دوره في الصراع في تلك الحقبة. وفي التوصيات شدد الباحث على ضرورة تعميق لبحث والدراسة في تفاصيل عمل العيون والجواسيس في فترة الصراع الإسلامي الفرنجة؛ للاستفادة منها.

Abstract

The work of spies is one of the most important ways and methods that states have resorted to throughout history to confront enemies, especially at time of hostility. This method was adopted at the Zanki and Ayyubid period of the Islamic State, a time that witnessed most of the conflict between the Muslims and Crusaders in the Levant. Many researchers and historians have studied this conflict and dealt with it from historical, political, and military perspective is chronological order. However, they have not analytically examined the role of spies and their importance in the course of this historical conflict, with the exception of some descriptive studies. Therefore, this study titled "the Spies in the Levant at the Zanki and Ayyubid period of the Islamic State" came to investigate the important role of the spies at that period, and the most important means and methods that were used in that historical period, which has a special effect of the live of the Muslim Ummah.

This study consists of four chapters. The first chapter includes the linguistic and historical origins of the work of the spies. In addition to the most important attributes functions and duties. In addition, it discusses the subject of spies in Islamic law through research and reasoning, verses from Qur'an, Hadith, the views of scholars, letters, treaties, and the historical review of the work of the spies since the dawn of Islam and the ending era of Abbasi, with which this study begins after the end of this era. The second chapter addresses the structure of Spies Apparatus at the Zanki and Ayyubid period of the Islamic State. This Apparatus included mail unit, unit of carrier pigeon, survey unit, unit of espionage, unit of ambushes, investigation unit, translation unit, code and decoding unit, and the unit of political polarization. The third chapter discusses the methods and means of action of the spies at the Zanki and Ayyubid period of the Islamic State, which included ways of deception and fraud, spyware, and other methods including the use of civilians to obtain information, as well as military tactics. The fourth chapter discusses the importance of the role of the spies in the conflict at the Zanki and Ayyubid period, where this period had a prominent role in the battles and acts of war, the protection of internal security, detect plots and counter intelligence activities, the ability to break down the morale of the crusaders and undermining their stability.

The result shows that the work of spies at the Zanki and Ayyubid period was systematically planned and implemented within a clear framework, which makes it important at conflicts at that period of time. The researcher strongly recommends intensifying detailed researches and other studies on the work of spies at the period of conflict between Muslims and Crusaders.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الآية الكريمة	2
الإهداء	3
الشكر والعرفان	4
ملخص باللغة العربية	5
ملخص باللغة الانجليزية	6
فهرس المحتويات	7
المقدمة	10
تحليل المصادر والمراجع التاريخية	13
الفصل الأول **العيون والجواسيس في اللغة والتاريخ**	
أولاً : العيون والجواسيس في اللغة والاصطلاح	20
ثانياً : تعريف العيون في الشريعة، ومكانتها وضوابط عملها	22
ثالثاً : العيون والجواسيس في الحضارات القديمة	31
رابعاً : العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية من عهد النبوة إلى منتصف العهد العباسي.	35
الفصل الثاني **وحدات العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي**	
أولاً : البريد	50
ثانياً : وحدة الحمام الزاجل	53
ثالثاً : وحدة اليزك (الاستطلاع)	56
رابعاً : وحدة الكمائن	59

خامساً : وحدة التحقيق	65
سادساً : وحدة الترجمة	68
سابعاً :وحدة التعمية (التشفير)	69
ثامناً : وحدة مراقبة و استقطاب الشخصيات القيادية لدى العدو	70
الفصل الثالث **صفات وواجبات و أساليب ووسائل عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي**	
أولاً : صفات العيون والجواسيس	73
ثانياً : واجبات العيون والجواسيس	76
ثالثاً : أساليب ووسائل عمل العيون والجواسيس	78
الفصل الرابع **دور العيون والجواسيس في الصراع الإسلامي الفرنجة في العهدين الزنكي والأيوبي**	
أولاً : دور العيون والجواسيس في المعارك والأعمال العسكرية	104
ثانياً : دور العيون والجواسيس في حماية الأمن الداخلي	108
ثالثاً : دور العيون والجواسيس في كشف المؤامرات	113
رابعاً : دور العيون والجواسيس في مكافحة النشاطات التجسسية المضادة	114
خامساً : دور العيون والجواسيس في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة	117
سادساً :دور العيون والجواسيس في زعزعة استقرار الفرنجة	123
الخاتمة	
أولاً : الاستنتاجات	126
ثانياً : التوصيات	127

المصادر والمراجع	
أولاً : المصادر العربية	129
ثانياً : المصادر الأجنبية المترجمة	142
ثالثاً : المراجع العربية	143
رابعاً : المراجع الأجنبية المترجمة	145
خامساً : الرسائل العلمية	147
سادساً : الدوريات	148
سابعاً : المراجع الانجليزية	149
ثامناً : المراجع الفرنسية	149

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ثم أما بعد،،،

يُعد عمل العيون والجواسيس من أهم الأعمال العسكرية والسياسية في إدارة أي صراع، ولما كان الصراع الإسلامي الفرنجة (522هـ- 648 هـ/1099-1291م) على أشده، كان لا بد من استخدام هذا العمل من أجل تحقيق الانتصار في المعارك والأعمال الحربية، والتي كانت في مجملها تهدف إلى تحقيق نصر حاسم يُنهي الوجود الفرنجة في بلاد الشام. وهذا ما قامت به الدولة الإسلامية في العهدين الزنكي والأيوبي، التي عاصرت أغلب فترات الصراع الإسلامي الفرنجة.

لذلك جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على طبيعة العمل الاستخباري الذي كان معمولاً به في الدولة الإسلامية، والذي كان يطلق عليه اسم العيون والجواسيس.

لقد درس العديد من الباحثين والمؤرخين فترة الصراع الإسلامي الفرنجة، وعالجوها من ناحية تاريخية وسياسية وعسكرية، وتسلسل للأحداث؛ إلا أن التعرض بالدراسة التحليلية لدور العيون والجواسيس وأهمية دور هذه الفئة كان قليل باستثناء بعض الدراسات السطحية.

ولأن العمل الأمني، هو عمل شاق، ويعتبر خط الدفاع الأول عن البلد، وهو الذي يحمي الدولة وجيشها، عندما تصدر قرارات الحرب أو السلم المبنية على أساس معلوماتي صحيح، والتي توجه الجيش والسلطة السياسية نحو القرارات الصحيحة. ومن منطلق اهتمامات الباحث الشخصية وطبيعة عمله كوزير للداخلية في الحكومة الفلسطينية بغزة، فقد فضل دراسة هذه الموضوع من ناحية تحليلية من أجل تعميق الفهم الأمني والاستفادة منه في حياتنا العملية.

الباحث يدرك صعوبة الموضوع، ولكن بجهده الخاص، ومساعدة مشرفه الفاضل الأستاذ الدكتور/ رياض مصطفى شاهين، وتوجيهاته الحكيمة، ومجموعة من الإخوة المستشارين تم التغلب على كل هذه الصعوبات.

أهداف الدراسة:-

1- تسليط الضوء على عمل العيون في العهدين الزنكي والأيوبي.

2- التعرف على أقسام عمل العيون في العهدين الزنكي والأيوبي.

3- دراسة أهمية عمل العيون في العهدين الزنكي والأيوبي.

4-استعراض الوسائل والأساليب المستخدمة في عمل العيون في العهدين الز نكي والأيوبي.

ولتحقيق هذه الأهداف، تبنت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي كمنهج رئيس. أما حدود الدراسة فكانت على النحو التالي:

1- الحدود الزمانية: تمتد على طول فترة العهدين الزنكي والأيوبي (522- 648هـ/1128- 1250م)

2- الحدود المكانية: تمتد حدود الدراسة على مساحةالصراع القائمة بين المسلمين و الفرنجة في بلاد الشام كمنطقة رئيسية إضافة إلى امتدادها بشكل محدود في مصر والعراق.

تقسيمات الدراسة:-

وقعت الدراسة في أربعة فصول أساسية، إضافة إلى مدخل الدراسة واختتمت بالنتائج التوصيات. حيث استعرضت الدراسة في مدخلها بعد المقدمة،المشكلة والتساؤلات التي تُثار حول موضوعها وأهدافها وفرضياتها، وحدودها الزمانية والمكانية، وكذلك مناهج البحث العلمي المتبعة والدراسات السابقة ذات العلاقة، ثم اختتم المدخل بتحليل لأهم المصادر التاريخية.

الفصل الأول: جاء بعنوان: "العيون والجواسيس في الإسلام"،وقد قُسم إلى أربعة محاور رئيسية، المحور الأول تحدث عن العيون والجواسيس في اللغة، ووضحها لغةً واصطلاحاً، مبيناً الفرق بين الجواسيس والعيون من خلال استعراض لأهم آراء وتفسيرات علماء اللغة، المحور الثاني: استعرض موضوع العيون والجواسيس في الشريعة الإسلامية من خلال البحث والاستدلال، بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، وآراء الفقهاء، والرسائل والمعاهدات، أما المحور الثالث فقد استعرض الجذور التاريخية لعمل العيون والجواسيس في الحضارات القديمة، ابتدءاً من المصريين القدماء وانتهاءاً بالعرب قبل الإسلام. في حين جاء المحور الرابع ليقدم استعراضاً تاريخياً لعمل العيون والجواسيس منذ تاريخ الدول القديمة، ثم بعهدالنبوة، مروراً بالعهد الراشدي والأموي، وانتهاءاً بالعصر العباسي الأول، الذي بلتهائه تبدأ الحدود الزمانية للدراسة، وقد شمل هذا الاستعراض، البحث في مصادر المعلومات، وطرق إدارة العيون والجواسيس، والعمليات الخاصة التي نفذتها خلال عصرها.

الفصل الثاني حمل عنوان: "وحدات العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي" وقد جاءت معالجة الدراسة لموضوع العيون والجواسيس في فصول الدراسة الأخرى (الثاني والثالث والرابع) لتعطي تصوراً واضحاً عن آلية عمل جهاز العيون والجواسيس في هذه الفترة الزمنية الحساسة (عصر الحروب الفرنجة)، وما كان لها من دور مؤثر في هذا الصراع الدامي. حيث قسم الفصل على ثمانية محاور أساسية شكلت في مجملها الوحدات الخاصة والفاعلة في جهاز العيون والجواسيس، والتي شملت وحدة البريد، وحدة الحمام الزاجل، وحدة اليزك (الاستطلاع)، وحدة التجسس، وحدة الكمائن، وحدة التحقيق، وحدة الترجمة، وحدة الشيفرة، ووحدة الاستقطاب السياسي.

الفصل الثالث جاء بعنوان: "صفات وواجبات وأساليب عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي"، حيث قُسم الفصل على ثلاثة محاور أساسية. المحور الأول، استعرض أهم الصفات الخاصة التي يجب توفرها في العين، والتي درجت العادة في كل من يدير هذه الأجهزة، أن يطلب هذه الصفات في كل من يُراد له الالتحاق بهذا العمل، في حين أوضح المحور الثاني، أهم واجبات ومهام العيون، أما المحور الثالث، فقد استعرض أهم الأساليب والوسائل التي استخدمها العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي في فترة صراعهم مع الفرنجة، والتي شملت، أسلوب الخدعة والاحتيال، والتجسس بأساليبه المختلفة والمتعددة، وكذلك أساليب استخدام المدنيين في الحصول على المعلومات، والتي شملت السفارات والعاملين في الحقل الدبلوماسي، إضافة إلى التجار والرعاة، والأدلاء، وحتى السباحين استخدمهم صلاح الدين لنقل المعلومات والمؤن أثناء حصار عكا.وأخيراً استعرض الأساليب العسكرية التي كانت مستخدمة في عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي، والتي شملت، استخدام المواد الكيماوية، وقطع الأشجار، ومنع المياه عن الأعداء، واستخدام السهام في نقل المعلومات، واستخدام الهجوم التمويهي.

الفصل الرابع والأخير، جاء بعنوان: "دور العيون والجواسيس في الصراع الإسلامي الفرنجة في العهدين الزنكي والأيوبي"، حيث قُسم الفصل على ستة محاور أساسية، عالجت في مجملها أغلب الأدوار المؤثرة للعيون والجواسيس في الصراع الإسلامي الفرنجة، المحور الأول: تحدث عن دور العيون والجواسيس في المعارك والأعمال الحربية، والتي شملت عمليات حصار الحصون والقلاع، وتدمير الأسلحة الإستراتيجية للعدو، وتوجيه المعارك، وخصوصاً معركة حطين، أما المحور الثاني فتحدث عن دور العيون والجواسيس في حماية الأمن الداخلي، والتي شملت، مراقبة الرعية وكبار رجالات الدولة، والتعبئة العامة للقوات، ومراقبة الحدود، ومراقبة السفراء، المحور الثالث: تحدث عن دور العيون والجواسيس في كشف المؤامرات والتي كان من أهمها محاولتي اغتيال لصلاح الدين، أما المحور الرابع: فتحدث عن دور العيون والجواسيس في مكافحة الأنشطة التجسسية المعادية، في حين سلط المحور الخامس الضوء على دور العيون والجواسيس في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة، مثل استخدام الإشاعة والشهرة والصيت لكلٍ من عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والتي كانت توقع الرعب في صفوف الفرنجة عندما كانوا يعلمون بوجود أحدهم في الجيش الإسلامي أثناء المعارك، وأخيراً اختتم الفصل بالمحور السادس، الذي استعرض قدرة العيون والجواسيس على زعزعة استقرار الفرنجة في بلاد الشام، حتى تمكنت الدولة الإسلامية فيما بعد من إنهاء وجودهم في الشرق.

أما النتائج فقد جاءت مؤكدة لفرضيات الدراسة، والتي وضحت الهيكل التنظيمي لجهاز العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي، إضافة إلى الأساليب التي كان تستخدمها، ودورها المتميز في

الصراع الإسلامي الفرنجة وفي توصيات الدراسة شدد الباحث على ضرورة تعميق البحث والدراسة في تفاصيل العمل الاستخباري في فترة الصراع الإسلامي الفرنجة، والتي تحتاج إلى تعمق أكثر.

وأخيراً اختتمت الدراسة بالمصادر التاريخية، والمراجع العربية والأجنبية.

آمل أن يكون الله قد أعانني ووفقني لإنجاز هذه الدراسة على أفضل وجه، إنه جواد كريم، فإن أصبت فهذا توفيق من الله منّة، وا ن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

الباحث

فتحي أحمد حماد

تحليل المصادر والمراجع التاريخية

اعتمد الباحث على مجموعة جيدة من المصادر والمراجع التاريخية التي عالجت موضوع الدراسة، وقد كان مؤلفوها إما معاصرين للعهدين الزنكي والأيوبي وإما مؤرخين لهما، ومن أهم وأشهر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها الباحث:

أولاً: المصادر التاريخية.

1. كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو ما يعرف بـ(سيرة صلاح الدين) لابن شداد (1).

ورد في الكتاب أغلب الأعمال العسكرية والسياسية للسلطان صلاح الدين الأيوبي، وخصوصاً عمل العيون والجواسيس، وقد استفاد منه الباحث في الفصول الثاني والثالث والرابع بشكل كبير، لما فيه من أحداث مهمة ذكرها المؤلف، وخدمت موضوعات الدراسة بشكل عام، والفصول الثاني والثالث بشكلٍ خاص.

2. كتاب الكامل في التاريخ لمؤلفه ابن الأثير(2).

قدم المؤلففي كتابه صورة جلية عن الأحداث العسكرية والسياسية التي شهدها العصر ين الزنكي والأيوبي، وروى بعض القصص التي تحدثت عن اهتمام الدولة الإسلامية في العهد الزنكي والأيوبي بعمل العيون والجواسيس،وقد استفاد منه الباحث في الفصلين الثاني والثالث بشكلٍ كبير خصوصاً وأن هذين الفصلين تحدثا عن هيكلية جهاز العيون والجواسيس ووحداته العاملة، إضافة إلى التطرق إلى الأساليب والوسائل التي عملت بها وحدات العيون الزنكية والأيوبية.

---

(1) **ابن شداد:** هو بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم، توفي سنة 632هـ/ 1234م، ولد ونشأ في الموصل على غرار ابن الأثير، ثم انحدر إلى بغداد ونزل بالمدرسة النظامية، وأقام معيداً فيها مدة أربع سنين، عاد بعدها إلى الموصل سنة 569هـ وعمره ثلاثين عاماً، ليدرس في المدرسة الشهرزورية، وعلت مكانته لما اشتهر به من الحكمة والاتزان في التفكير، ولهذا عهد إليه الأتابك بمهمة السفارة إلى الخليفة العباسي وإلى صلاح الدين. استدعاه صلاح الدين للعمل معه، فأجابه لطلبة لما وجد فيه من حب الجهاد. وقد أحب صلاح الدين وبدأ يؤرخ له، إلا أن حبه هذا لم يجعله يغالي في تمجيد صلاح الدين وجيشه بطريقة غير واقعية. استمر في صحبة صلاح الدين خمس سنوات إلى أن وافت المنية صلاح الدين، وقد عبر عن الفاجعة التي ألمت بالمسلمين، بكلمات مؤثرة. ويعتبر ابن شداد مؤرخاً واقعياً، دون ما وقع تحت سمعه وبصره بصدق. (ابن شداد، النوادر السلطانية، ص: 65-70-85).

(2) **ابن الأثير:** هو أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الدزري الشياني، توفي سنة 630هـ/ 1233م، كتابه الشهير: الكامل في التاريخ. ولد ابن الأثير في وقت كان الفرنجةقد استقروا في الديار الإسلامية منذ خمسة وستين عاماً، وكان الصراع المرير بين المسلمين والصليبين على أشده، حتى جاء الوقت الذي خرج فيه إلى ميادين القتال في الشام ليشاهد بنفسه المعارك التي دارت بين صلاح الدين والصليبين، من الأحداث المحلية المثيرة التي شاهدها ابن الأثير في أواخر عمره، سقوط الدولة الزنكية التي عاش مع أسرته في كنفها ورعايتها منذ نزوحهم من مدينة (جزيرة ابن عمر) إلى الموصل. بدأ بكتابة التاريخ بتكليف من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي قضى على حكم آخر أبناء الأسرة الأتابكية. (ابن الأثير، الكامل 9/ 556)

3. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لمؤلفه أبو شامة.

تحدث المؤلف في كتابه هذا عن تنقلات الجيوش، وتفصيلات المعارك وأوصاف الأسلحة والحصون والسفن الحربية، وتطورات القتال، وأساليب عمل العيون والجواسيس في وأوقات السلم والحرب، وغير ذلك من الموضوعات الخاصة بالحروب، واستعرض تاريخ صلاح الدين معتمداً على كتب ورسائل مفقودة من أهمها كتاب البرق الشامي، وكتب ابن أبي طي ورسائل القاضي الفاضل، وقد استفاد منه الباحث في الفصول الثاني والثالث والرابع بشكلٍ واسع.

4. كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني(1).

تحث الكتاب عن المعارك والفتوحات التي دارت في عهد صلاح الدين الأيوبي، وخلفائه من بعده، والمشاكل التي دارت بينهم، مستعرضاً لأهم أعمال العيون والجواسيس من خلال سرد بعض القصص التي تشير إلى ذلك وقد استفاد منه الباحث في الفصل الثالث بشكلٍ كبير؛ نظراً لوجود تفاصيل كثيرة في تعالج مواضيع هذا الفصل.

5. كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ(2).

تحدث الكتاب عن الأحداث السياسية والعسكرية التي مرت على بلاد الشام في زمن الحروب الفرنجة، وطبيعة الصراعات الداخلية التي كانت قائمة بين الأمراء المسلمين، سيما وأن المؤلف أحد أمراء أسرة بني منقذ، كما تطرق إلى بعض أعمال العيون والجواسيس، وقد استفاد منه الباحث في الفصلين الثاني والثالث.

6. كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي(3).

تحدث الكتاب عن تفاصيل دقيقة للجيش الإسلامي في عهود الفاطميين والأيوبيين والمماليك، من حيث ديوان الجند، والاقطاعات البحرية التي كان يتمركز فيها الجيش، وأزياء الجند، والمراتب العسكرية، والأرزاق؛ إضافة إلى أساليب عمل العيون والجواسيس، مثل نقل المعلومات والتعليمات إلى القادة والأمراء، وقد استفاد منه الباحث في الفصل الأول.

---

(1) **العماد الكاتب الأصفهاني:** هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين محمد بن حامد توفي سنة 597هـ/ 1200م. التحق بصلاح الدين في دمشق عام 570هـ، فاستكتبه واعتمد عليه، حتى صارت مكانته تضاهي مكانة الوزراء، وصفه القاضي الفاضل بقوله"العماد كالزناد الوقاد". صنف العماد مجموعة من الكتب بلغ عددها زهاء عشرين كتاباً، أكثرها في التاريخ والشعر، إلا أن أبرز كتبه في التاريخ كتابان هما: البرق الشامي والفتح القسي في الفتح المقدسي. لازم العماد صلاح الدين في سلمه وحربه، فقد صحبه في زياراته وشهد انتصاراته من المأخذ على العماد كغيره من المؤرخين المبالغة في ذكر الأرقام، وكذلك إعجابه المفرط بالسلطان وجيشه.

(2) **أسامة بن منقذ:** هو أحد أمراء بني منقذ، الأسرة العربية التي حكمت مدينة (سيزر) على نهر العاصي بجوار حماه توفي سنة 584هـ/ 1188م، قضى شطراً من حياته متنقلاً بين البلاط الفاطمي في القاهرة وبلاط نور الدين في دمشق، وعاش في مصر في وقت عصيب، وتحدث عن الحوادث المرعبة التي عايشها في فترة الصراع التي دارت بين الوزراء في أواخر العهد الفاطمي. وعاصر صلاح الدين فترة طويلة، إلا أنه لم يتحدث عن فعالياته العسكرية.

(3) **القلقشندي:** هو أبو العباسي أحمد بن علي المتوفى سنة 821هـ/ 1418م.

7. كتاب تفريج الكروب في تدبير الحروب للأوسي الأنصاري(1).

تحدث الكتاب عن الحيل والخدع العسكرية التي استخدمها المسلمون في صراعهم مع الفرنجة زمن الدولة الأيوبية، كما ذكر الحيل والخدع العسكرية التي كان يستخدمها الفرنجة ضد المسلمين، لذلك استفاد الباحث من هذا الكتاب بشكل كبير في الفصل الثالث، وبعض المواضيع في الفصل الرابع.

8. كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لمؤلفه ابن واصل(2).

تحدث الكتاب عن تاريخ ملوك بني أيوب، منذ ظهورهم على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى الإسلامي، حتى نهاية دولتهم على أيدي المماليك، وقد أشار ابن واصل في كتابه هذا إلى الحيل والخدع العسكرية في الحروب الفرنجة، ودورها في حسم بعض المعارك وتحقيق الانتصارات، لاسيما الكمين. كما تحدث بشيء من التفصيل عن موقعة حطين (1187م/583هـ) وما حصل فيها من الحيل والخدع العسكرية، وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب بشكل كبير في الفصلين الثالث والرابع بشكل جيد.

9. كتاب تاريخ الأعمال التي تمت في بلاد ما وراء البحار، Historia Rerumin partibus marin in is Gestarum لمؤلفه وليم الصوري(3).

هو من أهم المصادر الأجنبية المترجمة، حيث كان المؤلف شاهد عيان لمعظم الأحداث التي وقعت في عصر الحروب الفرنجة، ومطلعاً على وثائق مملكة بيت المقدس المهمة، التي يصعب على غيره الإطلاع عليها؛ لما كان يتمتع به من مكانة كبيرة، كرجل دين ينتمي إلى دوائر السلطة في البلاط الملكي. فقد تحدث في كتابه هذا عن تأثير عمل العيون والجواسيس على الصراع الإسلامي الفرنجة، حيث استعرض تفاصيل بعض الحيل والخدع العسكرية، وقد استفاد منه الباحث في الفصل الثالث.

---

(1) **الأوسي الأنصاري:** هو عمر بن إبراهيم، عاش في أوائل القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وعاصر السلطان المملوكي فرج بن برقون، وكتابة يتفق بمحتوياته، مع النظرة العامة للحرب في الشرق الإسلامي خلال الحروب الصليبية، والفترة التي تلتها.

(2) **ابن واصل:** جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل الحموي، ولد عام (604هـ /1208م) في مدينة حماة ومات عام (697هـ /1298م)، وطاف ببلدان الشرق الأدنى الإسلامي، وشهد حملة لويس التاسع على مصر وهو في القاهرة، وله مؤلفات عدة منها التاريخ الصالحي. (جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، الإسكندرية، 1984م، ص2-10)

(3) **وليم الصوري:** ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، ولد في بيت المقدس عام 1130م،524هـ، وأمضى شبابه في المشرق الإسلامي، ثم تنقل في مدن باريس وشارتر وأورليان لتلقي العلم، قبل أن يعود إلى الأراضي المقدسة بعد عشرين سنة، وقد مات كما تشير أغلب الروايات عام 580هـ /1184م. (سعداوي، ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية، ص: 5-17)

ثانياً : المراجع التاريخية.

1. **كتاب العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ إلى نهاية العصر الأموي لمؤلفه رعد محمود البرهاوي(1).**

تحدث الكتاب عن موضوع العيون والجواسيس من خلال استعراض عام لعملهم وأهم أنشطتهم، وصفاتهم واجباتهم، كما تعرض إلى الرأي الشرعي لعمل العيون والجواسيس في الإسلام، وقد استفاد منه الباحث في الفصل الأول والثالث بشكلٍ خاص.

2. **كتاب الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين لمؤلفه م. حسن محمد حسين(2).**

تحدث الكتاب عن الجيش الأيوبي من حيث الهيكلية والوحدات العاملة فيه، وأساليب عمله والتدريبات، ومواجهاته مع الفرنجة، وكذلك عمل العيون والجواسيس، وقد استفاد منه الباحث في الفصل الأول بشكلٍ كبير.

3. **كتاب وقفات في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الفرنجةة لمؤلفه عبد المجيد البهيني(3).**

تحدث الكتاب عن أهم الأحداث العسكرية التي حدث في بلاد الشام زمن الحروب الفرنجة، والأساليب والأعمال العسكرية التي استخدمت في تلك الفترة بما في ذلك عمل العيون والجواسيس، وقد استفاد الباحث من هذا الكتاب في الفصول الثاني والثالث والرابع.

---

(1) رعد محمود البرهاوي، العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ إلى نهاية العصر الأموي، الكتاب الثقافي، اربد– الأردن، 2005م.

(2) م. حسن محمد حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1986م.

(3) عبد المجيد البهيني، وقفات في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، 2005م.

الفصل الأول

العيون والجواسيس في اللغة والتاريخ

عمل العيون له مواصفات وواجبات ومهام خاصة، وله منافع كثيرة، وقد أدركت هذه الأهمية كل حضارات العالم القديم، لذلك لا يعتبر عمل العيونعملاً وعلماً حديثاً ، بل تعود جذوره إلى آلاف السنين. وقد فطنت هذه الحضارات ولعاملون في مجال العيون والجواسيس إلى ضرورة أن يمتلك العاملون في هذا المجال مواصفات خاصة، لأن لديهم مهام خاصة لا يستطيع تنفيذها أي شخص(1)، وقد تعددت التسميات لعمل العيون في العصور السابقة، فتارة أطلق عليه صاحب الخبر(2)، وأخرى صاحب البريد، وثالثة العين(3)، ورابعة الجاسوس؛ ولكن عندما شرحوا صفات العاملين في هذا المجال ومهامهم نجد أن هناك اتفاقاً واضحاً بين كل من مارس هذا العمل في كل الحضارات وحتى اليوم، وان كانت أساليب هذا العمل قد تطورت في عصرنا الحاضر بشكلٍ كبير.

لذلك سنحاول في هذا الفصل استعراض أهم المفاهيم والتعريفات للعيون والجواسيس، وتوضيح الفرق بينهما، إضافة إلى معرفة صفاتهم ومهامهم، وفيما يلي التفصيل:

أولاً : تعريف العيون والجواسيس اللغة والاصطلاح.

كثيرة هي التعريفات والمدلولات لكلمة العين والجاسوس في اللغة، وسنحاول استعر اض أهم تلك التعريفات لغة واصطلاحاً ، وفيما يلي التفصيل:

1. العيون والجواسيس لغةً :

العين والجاسوس لفظتان تستويان في مدلوليها عند أهل اللغة، من حيث المعنى والمضمون، فقد عرف الفراهيدي العين بأنه الشخص الذي يُبعث لتجسس الخبر(4)، أما ابن منظور فقد عرفه: بأنه الطليعة الذي يأتي بالخبر، وهو الجاسوس، وهو الديدبان(5)(6).

وفي تعريفه للجاسوس، يشير الفراهيدي بأن اللفظ مشتق من جس الخبر (7). أما الأنباري(8) فقال هو: "الباحث عن أمور الناس، فيقال قد تجسس الرجل، وتحسس بمعنى واحد، وهو إجماع أهل اللغة، وهناك فرق بينهما، فقال: التجسس البحث عن عورات الناس والتحسس الاستماع لأحاديث الناس".

---

(1) **العمري**. أضواء، ص: 192

(2) **صاحب الخبر هو**: الّذي يحمل إلىخليفة أخبار النّاس، والجيش، والإدارة؛ وهي وظيفة شبيهة بالاستخبارات في هذه الأيّام. ينظر: الطبري، تاريخ (9/ 73، 11/ 235)؛ ابن الجوزي، الأذكياء، ص: 202. السيوطي، المزهر (1/ 95، 5/ 83)

(3) **العين**:الجاسوس الذي يتجسّس الأخبار. ينظر: ابن منظور، لسان العرب (6/ 38)؛ السيوطي، المزهر (297/1).

(4) العين، ص: 255.

(5) **الديدبان**: هو الرقيب والطليعة والربيئة؛ السيوطي، المزهر (300/1).

(6) ابن منظور، لسان العرب (13/ 303)

(7) العين (5/6)

(8) الزاهر (1/ 368)

يشير ابن الأثير بأن الجاسوس هو الذي يتجسس الأخبار لصالح العدو، وبأن الجاسوس هو صاحب الشر، والناموس هو صاحب الخير، وأن المتجسس يطلب الخير لغيره، والمتحسس يطلبه لنفسه، وهناك من قال إن التجسس هو البحث عن العورات، والتحسس الاستماع (1).

أما ابن حجر فيرى أن الجاسوس سمي عيناً لأن جل عمله بعينه، أو لشدة اهتمامه بالرؤيا واستغراقه فيها كأن جميع بدنه صار عيناً، ويرى أن التحسس هو البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن، وهي أعم من التجسس الذي هو البحث عن بواطن الأمور (2).

يتضح من خلال الاستعراض السابق أن اللغويين لم يعطوا اهتماماً كبيراً في توضيح لفظة العين، بل ركزوا على كلمة الجاسوس، وقد أسهبوا في تعريفه، ويبدو أن السبب هو الوضوح اللغوي للعين، والغموض النسبي للفظة الجاسوس، وأن عمل العين والجاسوس لغة يتعلق بجلب الأخبار، كما يظهر أن اللغويين قد تأثروا في تحديدهم اللفظة بمعطيات عصرهم، حيث أن الألفاظ تتعرض معانيها للتغير، والإضافة والنقصان، تبعاً للتطورات التي تمر بها الأجيال. وهذا ينطبق على كل لغة حية غير متحجرة مثل اللغة العربية، التي تكفل الله لها بالحفظ.

كما تبين أن ذم التجسس في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريف، والنهي عنه شرعاً قد ولدزاءه شعوراً معادياً، وهذا ما عبر عنه بصورة واضحة ابن الأثير وابن حجر عندما أشاروا إلى أن عمل الجاسوس، هو لأعراض الشر في حيث أن النفس تطمئن إلى لفظة العين، لأنه لم يرد فيها شيء من الإنكار (3).

2. العيون والجواسيس اصطلاحاً :

اصطلاحياً لا يوجد فرق ظاهر بين العين والجاسوس، فكليهما يؤدي نفس الدور، لذلك يمكن القول بأن العيون هم ذلك الصنف من المجاهدين، الذين برز دورهم إلى جانب الصفوف الأخرى، من الجيش الإسلامي منذ عهد الرسول ﷺ وشملهم التطور، ما بين جمع المعلومات المتعلقة بالعدو، سواء فيما يخص قواته، وقياداته، وخططه، وأهدافه، مروراً بإمكانيات العدو البشرية، والاقتصادية، والعقائدية، وطبيعة أراضي العدو من حيث التضاريس، كما كان من مهامهم أيضاً، تحقيق أمن الدولة، عبر منع جواسيس العدو، وعيونه من التسلل إلى دار الإسلام سواءاً للحصول على المعلومات، أو للتخريب، أو بث الفرقة بين عناصر الأمة، أو تجنيد عناصر بعينها، من ذوي النفوس المريضة، للعمل معه، كما قام العيون والجواسيس العرب المسلمون، خلال هذه المرحلة، بعمليات خاصة تتعلق بالقضاء على قيادات العدو، أو خطفها، أو إرعابها، وهو ما تقوم به الأجهزة الإستخبارية في عصرنا الحالي (4).

([1]) ابن الأثير، الكامل (1/ 272).

([2]) فتح الباري، ص: 509.

([3]) البرهاوي، العيون، ص: 18.

([4]) البرهاوي، العيون، ص: 19.

ويجب الإشارة هنا إلى ورود مصطلحات أخرى إلى جانب العيون والجواسيس مثل الدسيس، وهو الذي تدسهر ًا ليأتيك بالأخبار، ويتصف عادة بالمكر والدهاء، والعمل بعيداً عن الأضواء في جنح الظلام (1).

كما أن الأدلاء، بدورهم أدوا واجباً تجسسياً من خلال تعرفهم على الطرق والمسالك، "وكان المسلمون يستعينون بالأدلاء لإرشادهم الطرق، ولا سيما في أيام الخطر. "... لذلك كانوا يتحسسون جهدهم الطرق، ولا يسيرون إلا في الطرق الآمنة التي يوثق من ذمم أصحابها ومن قدر ة سادتها على ضبطها وعلى إنزال أقصى العقوبة بالخلعاء وبالخارجين على الطاعة والعرف، ويستأجرون الأدلاء أصحاب العلم والدراية العملية بالطرق وبمخارجها وبكيفية الخروج من مآزقها ومهالكها وأخطارها، ينفقون معهم على إرشادهم، على أن يكون لهم أجر حسن"(2).

ثانياً : تعريف العيون في الشريعة، ومكانتها وضوابط عملها.

عالج التشريع الإسلامي موضوع العيون والتجسس معالجة تامة من خلال توضيح أبعاده وأسسه التي يجب أن يسير عليها العاملون في هذا المجال، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لذلك سنحاول استعراض الآيات والأحاديث والآراء الفقهية والوصايا والرسائل التي ورد فيها ذكر للعيون والجواسيس، كما الإطلاع على المحاذير التي يتوجب عليهم أخذها بعين الاعتبار، وفيما يلي التفصيل:

1- العيون والجواسيس في القرآن الكريم:

وردت لفظة عين ومشتقاتها، في القرآن الكريم إحدى وستين مرة، منها ثمانية وعشرون مرة للدلالة على العين البشرية، وثلاثة وعشرون مرة، بمعنى عين الماء وغيرها، وعشر مرات بمعنى الحفاظ والرعاية والراحة والاطمئنان واليقين والفرح(3) مثل قوله تعالى في سورة هود(**وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحْيِنَا**)(4) أما كلمة جاسوس فلم ترد صراحة في القرآن، وا ٍنما وردت مشتقاتها مثل جس، وحس، مثل قوله تعالى في سورة الحجرات(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**)(5) إن النهي عن التجسس في هذه الآية، يتعلق بواقع العلاقات الشخصية بين المسلمين، والنهي عن كشف أسرارهم وعدم إظهار عيوبهم، أما فيما يتعلق بالكفار، فلا حرج أن تعلن

---

(1) الفراهيدي، العين (7/ 185-186)

(2) الواقدي، المغازي (1/ 217-218)؛ ابن منقذ، الاعتبار، ص: 11.

(3) عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص: 495 -496.

(4) القرآن الكريم، هود، الآية: 37.

(5) القرآن الكريم، الحجرات، الآية: 12.

لأسرارهم، كما أن الفاسق يجوز أن تذكر أسراره عند الحاجة حتى لا يشكل خطراً على المسلمين وعلى الجماعة المسلمة.

وكما وردت لفظة التجسس في قوله تعالى: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)(1). والمقصود هنا بالتحسس هو التماس وتعرف الخبر(2).

ومن الآيات الأخرى التي حثت على امتلاك كل قوة بما فيها عمل العيون والجواسيس الذي يعتبر جزءاً من القوة التي يتوجب أن يمتلكها كل جيش إسلامي، يقول تعالى: (وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ)(3).

يقول الفهري في فهمه لهذه الآية "إلى أن ما استطعتم يشمل كل ما في مقدور هذه الآية من القوة والعدد والحيلة، حيث أن على القائد أن يستخدم الجواسيس في مراقبة عدوه، واستعلام أخباره مع الساعات، ومعرفة قياداته ومحاولة كسبها، إلى جانبه حتى لو بالمال"(4).

وفي الحديث عن المنافقين يشير الطبري إلى أن المنافقين يعملون كعيون لصالح الأعداء(5)، منطلقاً في تفسيره هذا من فهمه للآية الكريمة التي نزلت في أحداث غزوة تبوك منددة بأفعال المنافقين، قال تعالى: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَ لأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)(6).

يذكر أن الخليفة العباسي المأمون كان قد سأل الفقيه عبد العزيز المكي الكناني أن الله سبحانه وتعالى يقول: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)(7) ومع ذلك لم يرد فيه ذكر للجواسيس، فاستشهد عبد العزيز بقوله تعالى: (يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ)(8).

وفي خضم تصرفات المنافقين، وكيف أنهم يعملون عيوناً على الصف الإسلامي تطوعاً، مدفوعين بالحقد والكراهية،للتعاون مع كل عدو للإسلام، ولتحقيق ما يضعف وحدة الأمة، وا رتباطها بقيادتها الربانية، حيث ينقلون إليهم بسرعة أسرار المسلمين العسكرية والأمنية، في حالة قوة الجانب الإسلامي، وفي حالة الضعف والمحنة، فهم يشيعون الهلع والرعب، في قلوب العناصر المهزومة

---

(1) القرآن الكريم، يوسف، الآية: 87.

(2) الطبري، مجمع البيان (32/13)

(3) القرآن الكريم، الأنفال، الآية: 60.

(4) الفهري، سراج الملوك، ص: 326 – 328.

(5) الطبري، تاريخ (102/10)

(6) القرآن الكريم، التوبة، الآية: 47.

(7) القرآن الكريم، الأنعام، الآية: 38.

(8) التوحيدي، البصائر والذخائر، ص: 530.

والضعيفة(1) قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(2).

كذلك ورد في آيات القرآن ما يدعوا إلى ضرورة ترصين الحس الأمني لأبناء المجتمع، وضرورة الحذر من مكائد العدو وخططه الخبيثة، في إقامة أي اتصال يمكن أن يقود بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى فتح قناة للمعلومات أو إقامة قاعدة للتخريب تحت أي ستار كان لخدمة أعداء الأمة، قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(4).

أما العيون التي وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم بصورة غير مباشرة فهو الهدهد الذي كان مكلفاً من قبل نبي الله سليمان عليه السلام بالتجسس ونقل أخبار البلاد البعيدة إليه، قال تعالى: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾(5).

2- العيون والجواسيس في الحديث النبوي الشريف:

يمثل الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، حيث وردت الإشارة إلى العيون والجواسيس بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبعد الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ قال:" إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً ")(6).

إن الفهم الصحيح لهذا الحديث يجب أن يكون ضمن ظروف محددة، لا أن يتم توظيفه في سياقات أخرى، فالنهي هنا جاء عن تتبع عورات المؤمنين بعضهم لبعض، وليس من خلال السلطة المنبثقة عنهم، والتي تدير شؤونهم، والواقع المشاهد أن التجسس الذي تمارسه بعض الدول على رعاياها، بصورة غير طبيعية ولا مبررة يؤدي إلى ظهور حالة من الرعب، والفزع في صفوف الرعية وتختفي الثقة والود بين الحاكم والمحكوم.

---

(1) البرهاوي، العيون، ص: 31.

(2) القرآن الكريم، النساء، الآية: 83.

(3) القرآن الكريم، المجادلة، الآية: 22.

(4) القرآن الكريم، آل عمران، الآية: 28.

(5) القرآن الكريم، النمل، الآية: 20.

(6) البخاري، صحيح البخاري (60/4)

وهذا يؤدي إلى انهيار الجبهة الداخلية عاجلاً أم آجلاً، كما حدث لكثير من الدول في عصرنا الحاضر (1)،من أشهر الأحاديث التي تحث على استخدام العيون والجواسيس ضد الأعداء، ما ور د من حديث النبي ﷺ: (الحرب خدعة)(2).

وقد اهتم العلماء اهتماماً كبيراً في تفسير هذا الحديث، حيث يقول ابن الأثير في نظرته للحرب:يقّضي أمرها بخدعة واحدة من الخداع، والمقاتل إذا خ ُدع مرة واحدة، لا تقوم له قائمة"(3).

أما ابن حزم، فيشير إلى أنه يتوجب على المسلمين أن يضربوا الأعداء، من أهل دار الحرب بعضهم ببعض، حتى يقاتل بعضهم بعضاً، وينشغلوا فيما بينهم عن تهديد المسلمين، أو توحيد كلمتهم ضدهم مصداقاً لقوله ﷺ : "إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم"(4).

أما الإمام النووي فيجيز في شرحه لهذا الحديث خداع العدو في الحرب، وكيف أمكن الخداع، إلا أن يكون في الخداع نقض عهد، أو أمان فلا يحل حينئذ(5).

في حين قال ابن حجر عن تفسيره لهذا الحديث أن الاحتياج إلى الخدعة أكبر من الشجاعة حيث أن الحرب الجيدة إنما هي في المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر(6).

إن رؤية ابن حجر لفهم هذا الحديث توضح بما لا يدع مجالاً للشك أهمية دور العيون والجواسيس في تحقيق النصر على العدو.

أما في العلم العسكري الحديث وفن الحرب فيعتبر امتداد وتأكد لما ورد في تفسير العلماء سابقي الذكر، حيث يؤكد كلاوزفيتز في تعريفه للإستراتيجية بقوله أن "الإستراتيجية استعارات اسمها من الخدعة والحيلة، فالذي يستخدم الخدعة يستدرج الشخص الذي يريد خداعه، على أن يرتكب بنفسه أخطاء فكرية، تحجب حقيقة الأشياء الماثلة أمامه بصورة مفاجئة"(7).

أما دراسة سيرة المصطفى ﷺفتعطينا انطباعاً واضحاً عن فهم النبي ﷺ لدور المنافقين الذين كانوا يعملون عيوناً عليه وعلى دولته، لذلك نجد أن النبي ﷺ كان على علم بكل ما كان يقوم به المنافقون من خلال العيون من المتطوعين الذي ارتفع لديهم الحس الإيماني دفعتهم لأن ينقلوا للنبي ﷺ كل حركات وسكنات المنافقين، وأعمالهم ضد الرسول وضد المسلمين، الأمر الذي أقره الرسول ﷺ

---

(1) البرهاوي، العيون، ص: 32.

(2) البخاري، صحيح (174/2)

(3) ابن الأثير، الكامل (133/3)

(4) ابن حزم، المحلي، ص: 113.

(5) صحيح مسلم، بشرح النووي (45/12)

(6) بن موسى، عمدة القارئ، ص: 275.

(7) كلاوزفيتز، الوجيز في الحرب، ص: 200.

و"أنه في نفس الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ، يعرف ما يقوم به المنافقون من أعمال، إلا أنه لم يعرض لهم، لأنه لم يكن قد تقررت الأحكام، ولا تمكن الإسلام فطبيعة الموقف في المدينة، وا ن شهدت تنامي سلطة الرسول ﷺ بشكلٍ مطرد إلى أن تمت له السيطرة الكاملة على الوضع، إلا أنه مع ذلك يحاول أن تكون إجراءاته ضدهم بأقل خسائر ممكنة، نظراً لطبيعة العلاقة القبلية، وتعاطف بعض المسلمين معهم نظراً لعدم استيعابهم خطورة النفاق، أو لكون الشخص الذي تربطه بهم علاقة قربى هو منافق، برغم حضوره لمسجد رسول الله ﷺللصلاة، واشتراكه معهم في العمليات الحربية أحياناً ومهما يكن من أمر فإن السبب الأساس لموقف الرسول ﷺ هو أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهذا لا يبيح قتلهم في المنطوق الإسلامي الذي لا يعاقب على السرائر"(1).

أما الأحاديث التي وردت عن الغيبة فلا تؤخذ على إطلاقها، بل هي تحرم أعمال الغيبة داخل الصف المسلم، أي بين المسلم وأخيه، إلا أنها تحل ضمن ضوابط شرعية، حيث يشير الإمام النووي، إلى أن الغيبة تباح للأغراض الشرعية لستة أسباب، منها التظلم لتحقيق الحق، والاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، وتحذير المسلمين من الشر، والإخبار بعيب شخص، طلبت معلومات عنه لأغراض مشروعة ولفضح المترددين إلى الفساق، وأهل البدع، أو كشف الفاشلين إدارياً في ولاية، أو أمر من الأمور، وأخيراً فضح المجاهرين في الفسوق والبدع(2).

نستنتج مما سبق أن الحكم الشرعي الفاصل بين الحلال والحرام، هو المصلحة الشرعية المقيدة بما ورد في الكتاب والسنة، فكل ما يفيد الأمة وشريعتها حلال، وكل ما يضر بالأمة وشريعتها حرام، والأمر متروك لولي الأمر في اهتدائه بهما، وفي ذلك يشير بن حجر إلى أن: "بعض القول المنقول على جهة الإفساد يجوز، إذا كان المقول فيه كافراً، كما يجوز البحث في بلاد أعداء الإسلام، ونقل ما يضرهم"(3).

3. العيون والجواسيس في الفقه:

انطلق الفقهاء المسلمون في إصدار أحكامهم الشرعية المتعلقة بالجاسوس المسلم، والذمي، والمستأمن، والحربي على أساس من معطيات الكتاب والسنة والاجتهاد، لذلك اختلفت تأويلاتهم، وأحكامهم حسب فهمهم للنص، أو الحدث أحياناً، وحسب عصرهم وحاسيتهم إزاء خطورة هؤلاء. وهذا ما وضحه ابن القيم عندما ناقش قضية تغيير الفتوى، وا خلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد(4).

---

(1) البرهاوي، العيون، ص: 33.

(2) صحيح مسلم، بشرح النووي (142/16 – 143)

(3) التلمساني، تحفة الناظر، ص: 52.

(4) ابن القيم، أعلام الموقعين ، ص: 3.

إن الحكم الشرعي للجاسوس المسلم، الذي يدخل في خدمة الأعداء لا يمكن فهمه إلا من خلال الإطلاع على قصة حاطب بن أبي بلتعة، والتدقيق في ظروفها وملابساتها، فقد اهتم الفقهاء بهذه القصة اهتماماً كبيراً، وبالتالي اختلفت في نفس الوقت نظرتهم حيالها.

إن خلفية حاطب قبل إسلامه، وموقعه في المجتمع المكي، ربما تساهم في توضيح حقيقة ما حدث، حيث تشير معظم الروايات إلى أن حاطب ينتمي إلى قبيلة لخم العربية، وقد جاء إلى مكة لأسباب مجهولة، وحالف بني أسد بن عبد العزي من قريش،وقد أسلم حاطب مبكراً، وهاجر مع النبي ﷺ إلى المدينة، وشهد بدراً وأُحداً والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه الرسول ﷺ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان من الرماة المذكورين، وقد توفي في خلافة عثمان ﷺ سنة 30هـ عن خمسة وستون عاماً (1).

يتضح مما سبق أن حاطب لم يكن قرشياً، بل لخمياً متحالفاً مع بني أسد من قريش ووضعيته كحليف هي التي أدت إلى عدم إيذاء عائلته، ولربما رعايتها من قبل حلفائه في مكة لا سيما وأن المصادر لم تشر إلى أي دور فاعل له في الغزوات السابقة في النكاية بقريش، فهو كان مجاهداً عادياً . وبرغم صدق إيمان حاطب وتاريخه الإسلامي المشرف، إلا أنه أحس برغبة في نفسه لمكافأة حلفائه من بنيأسد، وليظهر تعاطفه معهم لحسن رعايتهم لأسرته، وفي نفس الوقت لم يُرد أن يقوم بعمل يغضب الله ورسوله ﷺ، ولكنه لم يوفق في اختياره، فعندما تهيأ الرسول ﷺ لفتح مكة، وبدأ باتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لذلك، أسرَّ إلى بعض أصحابه حقيقة الهدف، وكان من بينهم حاطب، وأشاع في الناس أنه يريد هوازن(2).

فكتب حاطب إلى زعماء قريش، صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، يعلمهم أن رسول الله ﷺ يقصدهم، وبعث الكتاب مع امرأة من مزينة اسمها كنود، وقيل سارة مولاة عمرو بن هشام بن عبد المطلب، فجعلته في رأسها، وفتلت عليه جدائلها(3) وقد أورد المؤرخون والمفسرون والمحدثون سبعة نصوص، للكتاب المرسل كلها تتحدث عن نية الرسول ﷺ لغزو مكة محذراً إياهم من ذلك(4).

على كل حال فقد وصل خبر الكتاب الذي أرسله حاطب مع المرأة إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي، وقد اتخذ الرسول ﷺ إجراء سريعاً تمثل بإرسال مفرزة من الخيالة لإيقاف المرأة وسحب الكتاب

---

(1) السهيلي، الروض الأنف، ص: 97.

(2) الطبري، جامع البيان (38/8)

(3) ابن هشام، سيرة (29/4)

(4) ابن حجر، فتح الباري (62/9)

منها(1) وقد اختلفت الروايات في عدد هذه المفرزة، إلا أن المؤكد أنها كانت بقيادة علي بن أبي طالب ﷺ والزبير بن العوام ﷺ (2).

ويشير أبو داود إلى أن تعليمات الرسول ﷺ تضمنت قتل المرأة في حال رفضها تسليم الكتاب، وقد استطاعت هذه المفرزة أن تصل إلى روضة خاخ(3)، التي حددها الرسول ﷺ بأنه المكان التي تتواجد فيه المرأة ورحلها، في طريقها إلى مكة، حيث تم إيقافها، وطلب منها تسليم الكتاب الذي بحوزتها، وقد أنكرت في البداية، فقاموا بتفتيشها، إلا أنهم لم يعثروا على شيء، وتختلف الروايات في مكان وضع المرأة للكتاب، فمنها من قال أنها وضعته في جدائلها، في حين أشار البلاذري أنها وضعته في حجزتها، أي في صدرها(4)، بينما يورد اليعقوبي أنها جعلته في قلبها، ورغم أن المفرزة قامت بتفتيشها، وكذلك رحلها، إلا أنها فشلت في العثور على الكتاب، الأمر الذي دفعهم إلى تهديدها بتعريتها(5)، الأمر الذي اضطرها في نهاية المطاف إلى إخراج الكتاب، حينئذ تركت وشأنها حسب أوامر النبي ﷺ، ثم عادت المفرزة إلى المدينة.

وعلى إثرها قام النبي ﷺ باستدعاء حاطب، وسأله عن سبب تصرفه هذا، وكان جواب حاطب بأنه مؤمن بالله ورسوله، ولكنه أراد أن يحفظ له أهل مكة أهله وولده، لأنه لم يكن في قريش، وقد صدَّق الرسول ﷺ قوله، وقال قولته المشهورة: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(6).

ونزل في حاطب قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)(7).

يتضح مما سبق أن عفو النبي ﷺ عن حاطب كان لسببين، الأول: جهله بخطورة عمله، وقد كان صادقاً في إيمانه، أنه لم يرتد أو يُنافق، والثاني أنه من أهل بدر.

نستنتج مما سبق بأن صلاحية العفو عن الجاسوس المسلم تعود إلى الرسول ﷺ فقط، ولا تنسحب إلى أولياء الأمور من بعده، لأنهم غير معصومين، كما أن كون حاطب من أهل بدر، وهم يحتلون مكانة سامية جداً لدى المسلمين الأوائل، ساعد على إصدار العفو عنه.

أما آراء الفقهاء المسلمين من الجاسوس بكل تصنيفاته الفقهية أكان مسلماً أم غير ذلك، فقد كانت على النحو التالي:

---

(1) ابن هشام، سيرة (291/4)

(2) الطبري، تاريخ (48/3– 49)

(3) روضة خاح: موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ، بقرب حمراء الأسد من المدينة. (الحموي، معجم البلدان (2/ 335).

(4) البلاذري، أنساب الأشراف (1/ 354).

(5) ابن هشام، سيرة (30/4)

(6) البخاري، صحيح (170/2)

(7) القرآن الكريم، الممتحنة، الآية:1.

أ- حكم الجاسوس المسلم.

يرى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ أبا حنيفة النعمان بن ثابت أنه يجب معاقبة الجاسوس المسلم بشدة عن طريق الضرب والحبس حتى يتوب(1)، أما المالكية فقد أباحوا قتل الجاسوس المسلم، الذي يكاتب العدو ويزودهم بأخبارلمسلمين، على الرغم من أن الإمام مالك بن أنس، حين سُئل عن ذلك اعترف بعدم وجود نص، وأرجع الحكم فيه إلى الإمام، إلا أنه انتهى أخيراً إلى شريعة قتله. أما الإمام الشافعي فيرفض عقوبة القتل، بحجة أن المسلم لا يحل قتله، إلا إذا ارتكب الكبائر الثلاثة وهي الكفر بعد الإيمان، والقتل المتعمد، والزاني المحصن(2).

الإمام أحمد بن حنبل وافق رأي الإمام الشافعي، ولم يبح القتل(3) وإن ظهر فيما بعد من فقهاء الحنابلة من يرى قتل الجاسوس المسلم من أمثال الفقيه علي بن عقيل، والإمام تقي الدين بن تيمية الحراني([4]).

ب- حكم الجاسوس الذمي:

يرى الأوزاعي أن القتل هو عقوبة الجاسوس الذمي، لأنه نقض العهد الذي قطعوه مع المسلمين، في حين يرى أبو حنيفة، أنها تنحصر في التعزير والحبس حتى يُظهر توبته(5)، وهذا هو رأي الشافعي أيضاً)6)أما الحنابلة فيرون أن تجسس الذمي، وإخباره العدو عن عورات المسلمين، يؤدي إلى نقض عهدهوبالتالي يُقتل([7]).

ج- حكم الجاسوس المستأمن:

المستأمن الذي يدخل دار الإسلام للتجارة، وغيرها ويؤمن خلال وجوده في دار الإسلام، فهو الآخر عليه ترك كل ما يضر أمن الدولة وسلامتها، شرط ذلك عليه في العقد، أم لم يشترط، لأن المسلمين ما كانوا ليسمحوا له بدخول بلادهم، وهم يعلمون أن سيتجسس عليهم، وعلى هذا يحق للإمام (الحاكم) أن يسحب أمانه ويطرده أو يحبسه، ويقرره للحصول على معلومات عن الشبكة التجسسية، التي عمل من خلالها، وله أن ينظر بقتله.

د- حكم الجاسوس الحربي.

---

(1) السرفسي، شرح كتاب السير الكبير (2040/5)

(2) النووي، المجموع (19/ 343)

(3) القرافي، الذخيرة، (400/3)؛ العبدري، التاج (553/4)

(4) الفراء، طبقات الحنابلة (4/1 – 20)؛ ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص: 93؛ الموسوعة الفقهية الكويتية (16/ 314)

(5) النيسابوري، الأوسط (11/ 283)

(6) النووي، المجموع (19/ 342)

(7) ابن تيمية، الصارم، ص: 268.

لم يختلف الفقهاء في الحكم الذي يستحقه الجاسوس الحربي، حيث اتفقوا على قتله، ووردت نصوص واضحة عن الرسول ﷺ في هذا المجال، فقد أشار مسلم في صحيحه إلى أنه في غزوة حنين كان الرسول ﷺنازلاً مع أصحابه، فجاءه رجل فأناخ جمله، وجلس مع المسلمين يتغدى وجعل ينظر يميناً وشمالاً، حيث رصد الوضع في المعسكر الإسلامي، ثم خرج مسرعاً إلى بعيره فركبه وانطلق، إلا أن اثنين من المسلمين طارداه بسرعة وكان أحدهما سلمة بن الأكوع الأسلمي، فقد تمكن سلمة من قتله وأقر الرسول ﷺ قتله([1]).

4- العيون في الوصايا والمعاهدات الرسائل:

تز خر وصايا رسول الله ﷺوخلفائه الراشدين، وكذلك ما أبرموه من معاهدات، وما كانوا يرسلونه من رسائلتشير بشكلٍ مباشر أو غير مباشر للعيون، وفيما يلي التفصيل:

أ- العيون في الوصايا.

حين وجه النبي ﷺ أسامة بن زيد(2) إلى أبنى(3) على أطرف الشام الجنوبية الشرقية، داخل النفوذ البيزنطي، حيث أوصاه ﷺ بالقول: "وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك الله عليهم فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع أمامك..."(4).

تؤكد وصية الرسول ﷺ على ضرورة سرعة الحركة التي تؤدي إلى تقليل الفترة الزمنية المتاحة أمام العدو، ليعد استعداداته للتصدي، ولكن سرعة الحركة في الوصول إلى الهدف وتحقيق المباغتة، إنما تتأتى عن طريق التعاون الوثيق، بين الأدلاء والعيون والطلائع، حيث أن الأدلاء والطلائع يقومان بتحقيق جزء مهم من أعمال العيون والجواسيس، يتمثل في معرفة الطرق والتضاريس، ومصادر المياه، وكذلك التأكد من احتمال وجود معوقات عسكرية محتملة من قبل العدو، على طريق سير الحملة(5).

أما في عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺفقد كانت وصايا للعيون أيضاً، فقد وصى ﷺ يزيد بن أبي سفيان ﷺ حين أرسله إلى الشام بقوله:وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، واقلل لبثهم

---

(1) مسلم، صحيح، بشرح النووي (5/ 150).

(2) **أسامة بن زيد بن حارثة** (7 قبل الهجرة – 54 هـ) هو وأبوه صحابيان، كنيته أبو محمد، ويقال: أبو زيد. وأمه أم أيمن حاضنة محمد بن عبد الله نبي الإسلام صلى الله، ومولاه ، وابن مولاه، قال بن سعد ولد أسامة في الإسلام ومات النبي صلى الله عليه وسلم وله عشرون سنة. وكان قد سكن المزة من أعمال دمشق ثم رجع فسكن وادي القرى ثم نزل إلى المدينة فمات بها بالجرف. ابن سعد، الطبقات الكبرى (146/2)

(3) أبنى: قيل: هي موضع بناحية البلقاء من الشام، وقيل: هي بين فلسطين والبلقاء، قالوا: وهي التي بعث إليها رسول الله زيدا أبا أسامة مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، فاستشهدوا في مؤتة من أرض البلقاء.. وعلى هذا يكون موقعها الان في شرقي الأردن قرب مؤتة. وفي فلسطين قرية تدعى «بينة، أو يا بنى» موضع بفلسطين بين عسقلان والرملة على الساحل. فهل تكون هي؟ وانظر: البكري، معجم (101/1).

(4) الواقدي، المغازي (1117/3)؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (146/2).

(5) البرهاوي، العيون، ص: 46.

حتى يخرجوا من عسكرك، وهم جاهلون به، ولا تدنيهم خيرو ا خللك، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك، فيختلط أمرك، ولا تحزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف عن الناس أسرارهم، واكتف بعلانيتهم"(1).

أما الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فلم يغفل أهمية العيون والجواسيس وكيفية استعمالهم، لذلك وصى قائده سعد بن أبي وقاص ﷺ عندما وجهه للعراق بقوله: "ونح منازلهم عن قرى الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، وا ٍذا وطئت أدنى أرض العدو بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر من الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقهم وتتبع عوراتهم، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها"(2).

ب- <u>العيون في المعاهدات.</u>

شملت معاهدات الدولة الإسلامية منذ عصر النبوة وحتى فترة الدراسة في العهدين الزنكي والأيوبي إشارات واضحة للعيون، تتضمن تعاونهم في الحصول على لمعلومات، أي أن يعملوا عيوناً للمسلمين، من خلال علاقاتهم أو تحالفاتهم القديمة مع الأعداء، الذين انسحبوا من المناطق المحررة، إلا أنهم ظلوا من خلال بقاء سيادتهم وقوتهم في مناطق معينة، على ثغور الدولة العربية الإسلامية كالبيزنطيين مثلاُ . وهذا يعني في الوقت نفسه عدم التعاون في مجال الأخبار والمعلومات، مع العدو السابق، أي أن يعملوا جواسيس له أو أن يؤوو ا جواسيسه(3).

يشير الواقدي إلى أن معاهدات الصلح أو الموادعة مع القبائل العربية تضمنت الاهتمام بالعيون، حيث وادع النبي ﷺ في غزوة الأبواء في السنة الأولى من الهجرة مخشي بن عمرو الغمري على أن: لا يغزونه ولا يكثروا عليه جمعاً ولا يعينوا عدواً)4).

وفي عصر التحرير والفتح، أكد المسلمون منذ البداية، في معاهدات الصلح على أهمية العيون حيث يرد في صلح خالد بن الوليد ﷺ مع أهل الحيرة: "على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس")5)، وهذا النص يظهر بشكل لا لبس فيه، إلزام أهل الحيرة، بالتعاون مع المحررين عبر تزويدهم بأخبار العدو،وفي الوقت نفسه عدم التعاون مع العدو مطلقاً، عبر نقل أخبار المسلمين

(1) البلاذري، أنساب الأشراف (10/ 113)؛ ابن الأثير، الكامل (2/404-405)؛.

(2) النويري، نهاية الأرب (6/ 170).

(3) البرهاوي، العيون، ص: 49.

(4) الواقدي، المغازي (12/1).

(5)النوير ي، نهاية الأرب (19/ 107).

إليهم. وفي صلح عمر بن الخطاب ﷺ مع أهل الذمة: "...ولا نؤوي في كنائسنا، ولا في منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين.وفي رواية أخرى ولا نكتم يميناً " (1).

وفي المعاهدة التي عقدها عبد الله بن سعد بن أبي السرح مع أهل النوبة وتحولت بموجبها تلك البلاد من دار الحرب إلى دار العهد(2) بعد فتح مصر، حيث فتحت تلك المعاهدة نافذة مهمة للاطلاع على ما يحدث في هذه البلاد عبر التجار المسلمين، فقد ورد في نص المعاهدة: "إنا عاهدناكم وعاقداكم، أن توفونا في كل سنة ثلاثمائة رأس، وستين رأساً، وتدخلوا بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذا ندخل بلادكم على أنكم إن قتلتم من المسلمين قتيلاً فقد برئت منكم الهدنة، وعلى إن آويتم للمسلمين عبداً، فقد برئت منكم الهدنة، وعليكم رد آباق المسلمين، ومن لجأ من أهل الذمة"(3).

ج- العيون والجواسيس في الرسائل.

تعد رسالة الإمام علي ﷺ إلى قائديه على مقدمة جيوشه المتجهة إلى الشام، زياد بن النقر، وشريح بن هانئي، من أقدم الرسائل، التي وردت فيها الإشارة إلى دور العيون والجواسيس، حيث قال لهما في رسالته: "واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما، فلا تسأما من توجيه الطلائع ومن نفض الشعاب والشجر، والخمرة من كل جانب كي لا يغتنمكما عدو، أو يكون لكم كمين، واجعلوا رقائبكم في صياصي الجبال، وأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب، يرون لكم لئلا يأتيكم عدو، من مكان مخافة أو أمن، وليكن عندي كل يوم خبركما، ورسول من قبلكما"(4).

لقد استخدمت في الرسالة مصطلحات بديلة عن العيون أو مقاربة لها، ولكنها تقوم بنفس الدور. حيث أكدت الرسالة على دور المقدمة التي تبعث العيون والطلائع، لجلب الأخبار، كما تقوم هذه العيون، بالتأكد من خلو الوديان والأدغال، والأشجار الكثيفة من أي تواجد للعدو فيها، من أجل تأمين سير الجيش، كما يجب نشر العيون على رؤوس الجبال والهضاب، والمناطق المطلة على الأراضي المنخفضة، كما تؤكد على ضرورة إطلاع المقدمة القيادة العامة على ما يتوفر لها من معلومات(5).

ومن الرسائل المهمة جداً التي تضمنت أهمية العيون والجواسيس، تلك الرسالة التي أوردها عبد الحميد الكاتب على لسان الخليفة مروان بن محمد إلى ولي عهده عبد الله بن مروان، حيث تظهر

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق (120/2)؛ ابن خلدون، تاريخ (477/5).

(2) دار العهد: وهي دار الصلح، وهي أراضي الدولة الكافرة التي ارتبطت بمعاهدات عدم اعتداء مع المسلمين. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (20/ 201)

(3) **ابن عبد الحكم**، فتوح مصر والمغرب ص: 216.

(4) الدينوري، الأخبار الطوال، ص: 166.

(5) البرهاوي، العيون، ص: 59.

الرسالة بشكل واضح ضرورة، أن يكون هدف العيون، معرفة تحركات العدو، من حيث التنقل، والمواقع، والأهداف التي يتطلع إليها، وفي الوقت نفسه، يجب أن تحصل العيون، على الحد الأدنى للأهداف السياسية للعدو، التي يمكن من خلالها الوصول إلى حل سلمي قبل القيام بالعمل العسكري، وبذلك يتضح لنا أن مهمة العيون لا تقف عند حدود المعركة العسكرية، بل تتعداها على كسب المعركة السياسية أثناء المفاوضات(1).

ثالثاً : العيون والجواسيس في الحضارات القديمة.

عرف عمل العيون والجواسيس منذ قيام الحضارات الإنسانية الأولى والتي نشأت على إثرها الدولة الأولى في العالم والتي كانت في مصر والعراق، وتبعتها كل حضارات العالم الأخرى في مناطقها، وسنحاول في استعراض بسيط التعرف على عمل العيون والجواسيس في الحضارات القديمة على اعتبار أن هذا العمل لم يكن صنيع المسلمين بل يمتد إلى جذور تاريخية تعود إلى أكثر من أربعة آلاف عام، وفيما يلي التفصيل:

1- العيون والجواسيس عند المصريين القدماء:

كان للمصريين القدماء بصمة واضحة في التأسيس لعمل العيون والجواسيس، فقد كانت لديهم وحدات متخصصة للتحقيق مع أسرى العدو واستجوابهم، ثم إرسال نتائج تلك التحقيقات إلى القيادة (2). كما عرفوا الشيفرة، حيث كانوا يكتبونها بلغتهم القديمة الهيروغليفية، وقد عثر على مخطوط هيروغليفي يتحدث عن نتائج التحقيق مع أسرى العدو، يعود إلى سنة 1900 ق.م (3).

وتعد معركة قادش التي وقعت سنة 1288 ق.م بين الجيشين المصري بقيادة رمسيس الثاني، والحيثي بقيادة موتاللو، نموذجاً على كيفية استخدام الطرفين للعيون والجواسيس، فقد قام موتاللو بإرسال اثنين من جواسيسه المدربين بصورة جيدة، إلى صفوف المصريين، على اعتبار أنهما هاربين من الجيش الحثي، حيث أبلغا رمسيس بذلك، وأخبراه بأن الجيش الحيثي يتراجع شمالاً وقد ترك مدينة قادش المهمة على نهر العاصي، وليس بها سوى قوة بسيطة، وكادت أن تؤدي هذه المعلومات المضللة، إلى ما يشبه الكارثة للقوات المصرية، لولا شجاعة رمسيس الثاني، الذي استطاع أن يتنطقهما بالقوة ويعلم أنه خُدع، ومن ثم قام بتعديل خطة الهجوم على قادش لتلافي الهزيمة، وتحويلها إلى نصر غير حاسم ([4]).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى (218/10).

([2]) مونتجمري، الحرب عبر التاريخ، ص: 54.

([3]) دافيدكان، الإستخبارات، ص: 13.

([4]) حارث لطفي الوفي، المخادعة ومعاركها، ص: 89.

2- العيون والجواسيس عند العراقيين القدماء:

عرف العراقيون القدماء عمل العيون والجواسيس وبرعوا فيه، ففي الدولة الأشورية كان العيون والجواسيس موظفين في الدولة، وظفوا لهذا الغرض (1).

وعلى صعيد إدارة تنظيم جهاز العيون والجواسيس نجد أن ولي العهد سنحاريب، كان يشغل منصب مسئول هذا الجهاز في عهد والده سرجون، وبالتالي كان يقوم بجمع وتنظيم المعلومات وتنسيقها وا يصالها إلى والده، وقد وصلت إلينا هذه التقارير، وهي غير مؤرخة، بسبب حلقات الاتصال المتعددة، التي تمر بها إلى أن تصل إلى الملك ([2]).

3- العيون والجواسيس عند الصينيين:

يُعد كتاب (فن الحرب) للقائد الصيني صون توزو، الذي يعود إلى القرن السادس ق.م، من أقدم الكتب التي تناولت فن الحرب بصورة عامة، وفن التجسس بصورة خاصة، حيث ورد في الكتاب ضرورة أن يمتلك القائد الناجح معلومات مسبقة عن العدو وأوضاعه حتى يحقق النصر، و جمع هذه المعلومات لا يتأتى إلا عن طريق الجواسيس، الذين يقسمهم إلى خمسة أقسام هم: مواطنون من رعايا العدو، عملاء في مركز داخلي، عملاء يخدمون العدو ويخدمون الوطن (عميل مزدوج)، عملاء يمكن الاستغناء عنهم، أو التخلص منهم بعد استعمالهم، عملاء مهمتهم طويلة الأمد، وعلى المسئول عن التجسس أن يستخدم كل الأنواع سابقة الذكر في آن واحد دون أن يعلم كل واحد منهم المهام التي يقوم بها الآخر، ولا طريقة عمله، ولا مجال نشاطه، وقد سموا هذه الفروع الخمسة بـ (الستار المقدس) ([3]).

4- العيون والجواسيس عند الرومان والبيزنطيين:

اهتم البيزنطيون بجمع المعلومات عن أعدائهم عبر الاعتماد على شبكة من العيون والجواسيس، ونظراً لأن السفراء كانوا يقومون بالتجسس، بصورة عامة فقد كانوا يضعونهم تحت مراقبة دقيقة، بحيث لا يؤوا أو يعلموا إلا ما تشاء الحكومة البيزنطية، كما كانوا لا يسمحون لهم، بالالتقاء بأي شخص غير مفوض، وبالمقابل فقد حرصوا على أن يقوم جواسيسهم بالبلدان الأخرى، برفد سفرائهم عن وضعية البلاد، وعن الأشخاص المتعاونين في تلك البلاد، والذين يمكن أن يحصلوا منهم على المساعدة والدعم اللازم (4). وعرف عن الإمبراطور هرقل، المعاصر للبعثة النبوية الشريعة، استخدامه لهم في حربه ضد الفرس الساسانيين، وكانوا هم أحد أسباب انتصاره ([5]).

([1]) هاري ساكر، عظمة بابل، ص: 146.

([2]) علي ياسين، صمود الأشوريين، ص64؛ منقول عن البرهاوي، المرجع السابق، ص: 20.

([3]) سان توزو، فن الحرب، ص: 207-209.

([4]) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص: 186-187.

([5]) الطبري، تاريخ (2/ 186)

5- العيون والجواسيس عند الفرس:

اعتمد الفرس في إمبراطوريتهم الساسانية على الجواسيس، من صفوف المدنيين، أكثر من اعتمادهم على الطبقة العسكرية(1)، فقد استخدموا التجار للحصول على المعلومات المتعلقة بالبيزنطيين، كما استخدموا السفراء لهذا الغرض، وكان لا يرشح لهذا المنصب، إلا الشخص الذي يدخل اختبارات عديدة، ويراقب من قبل عيون، تنقل تصرفاته، وكلامه، وكانوا يرسلون مع السفير، عيناً تحفظ كلامه، ويكتبه وذلك لخطورة عمل السفير، وخوفاً من كسبه من قبل العدو، وتواطئه معهم.([2])

6- العيون عند العرب قبل الإسلام:

عرف العرب العيون قبل الإسلام والجواسيس، ولكن عملهم لم يقتصر على الجانب العسكرية فقط، بل استخدم العيون والجواسيس للأغراض الاقتصادية، حيث كان على العيون أن تستطلع المنازل، والمراعي، والمياه، لاسيما في أوقات الجدب، وانحباس المطر، وكانوا يسمونه الرائد(3).

كما استخدم العيون والجواسيس في تأمين القوافل التجارية، لاسيما في غير أوقات الأشهر الحُرم، وقد امتاز العيون بجلدهم وصبرهم على تحمل التشويه الاختياري، للوجه عبر جدع الأنف والأذنين، لكي تنطلي الخدعة على الخصم، ويتم تحقيق الهدف، كما استخدموا النار للإنذار ليلاً وا إرسال الإشارات المتفق عليها، والدخان نهاراً، كما اعتمدوا على النساء لاسيما الجواري منهن في جلب المعلومات(4)، واستخدموا العبيد للحصول على الأخبار المتعلقة بأسيادهم(5).

رابعاً: العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية من عهد النبوة إلى منتصف العهد العباسي.

1- العيون والجواسيس في عهد النبوة:

أدرك النبي ﷺ أهمية العمل الاستخباري في إدارة صراعه مع القوى المتربصة به في الجزيرة العربية فمنذ أن وطئت أقدامه المدينة المنورة، وهو يُعد العدة لبناء الدولة، التي أرسى دعائمها القوية من خلال فهمه الشمولي والعميق لمقتضيات المصلحة العامة للدولة والخاصة لأفرادها وأدرك ﷺ بعبقريته الفذة أهمية الإعداد الصحيح للعمل العسكري وخصوصاً اتخاذ القرارات المصيرية، فبرغم أنه مؤيد من رب السماء، إلا أنه لم يترك باب الأخذ بالأسباب لذلك اهتم النبي ﷺ أيما اهتمام بعمل

([1]) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص: 4.

([2]) ابن الفراء، رسل الملوك، ص: 22-23.

([3]) الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص 108. الأخفش الأصغر، الاختيارين، ص 567. العسكري، جمهرة الأمثال، ج1، ص 474. المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ص 868. ابن أبي الركب، الإملاء، ص 287. علي، المفصل (9/ 294).

([4]) ابن الأثير، الكامل، ج1، ص348-350.

([5]) الجاحظ، البيان والتبيين ج2، ص22.

العيون، واختار لها أكفأ العناصر، ووضع لها أسس ومبادئ حاكمة لعملها تنطلق وفق رؤية شرعية(1).

ففي غزوة الرجيع في صفر: " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحاب الرجيع عيونا إلى مكة ليخبروه خبر قريش، فسلكوا على النجدية حتى كانوا بالرجيع فاعترضت لهم بنو لحيان"(2).

وقبيل فتح مكة " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه عيونا"(3).

وفي معركة أحد:بعّث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم- أنسا ومؤنسا ابني فضالة ليلة الخميس عينين، فاعترضا لقريش بالعقيقوعادا إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فأخبرا"(4).

ومن الجدير بالذكر أن عيون وأرصاد النبي ﷺ لم تقتصر على الجزيرة العربية فقط بل امتدت لتصل إلى بلاد فارس وبيزنطة.

فقد كان النبي ﷺ يحصل على المعلومات من مصادر مختلفة حتى أنه استطاع أن يزرع له عيون في كل مكان، فقد جاءته المعلومات من المسلمين المهاجرين والأنصار، ومن مسلمي القبائل الذين يقيمون في المدينة، والعيون في قبيلة خزاعة، والعيون في قبيلة جهينة، والعيون في قبيلة ضمرة، والعيون في قبيلة أسلم، والعيون في قبيلة غطفان، والعيون عند اليهود، والعيون المجندة في الشام، والتجار، والرسل، وعمال الصدقات،...الخ(5).

أ- <u>إدارة العيون والجواسيس.</u>

لقد كان النبي ﷺجل دولة من الطراز الأول، فقد أدرك أهمية تنظيم عمل وا ٍدارة العيون، فقد كانت تتبع له مباشرة، حيث تشير المصادر التاريخية إلى أن أبي بن كعب ﷺ (6)، كان يكتب ويقرأ للنبي ﷺ الرسائل السرية (7)، ثم تولى الأمر بعده زيد بن ثابت، حيث يشير ابن عساكر(8)، إلى أن الرسول ﷺ قال له: "إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد، فهل تستطيع أن تتعلم العبرانية أو

---

(1) الواقدي، المغازي (1/ 354).

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن كثير، السيرة النبوية (3/ 546).

(4) المقريزي، إمتاع الأسماع (1/ 132)

(5) البيهقي، دلائل النبوة (5/ 39)؛ غزوة مؤتة، ص: 129.

(6) أبي بن كعب ﷺ**أحد فقهاء الصحابة وقرّائهم، وقد شهد بيعة العقبة الثانية، وبايع النبي فيها، وكان من الأنصار الذين نصروا رسول الله واستقبلوه في يثرب، وقد شهد كل الغزوات مع النبي**ﷺ **وكان** ﷺ **من أوائل الذين كانوا يكتبون الوحي عن النبي** ﷺ **ويكتبون الرسائل، وقد قال عنه النبي** ﷺ **(أقرأ أمتي أُبى).** الواقدي، المغازي (13/1)

(7) المصدر نفسه.

(8) ابن عساكر، تاريخ دمشق (19/ 303) وانظر: البخاري، صحيح (3/ 33).

قال السريانية، فقلت نعم..." ؛ فالأمر يتعلق هنا بتعلم الكتابة، كما أشير إلى محاولته تعلم الفارسية والرومية، والقبطية، والحبشية، من أصحاب هذه اللغات المقيمين في المدينة(1) .

كما كان لعمر بن الخطاب ﷺ دور بارز في العمل الأمني في عهد الرسول ﷺ، حيث كان ينقل أخبار خيانة بني قريظة في الخندق من مصادر يهودية على الأرجح، من داخل بني قريظة، وقد تولى بنفسه التحقيق مع الجاسوس الذي ألقي القبض عليه في أحداث غزوة بني المصطلق (2)، كما أنه هو الذي اقترح على النبي ﷺ التخلص نهائياً من زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول، بعد أن صعد عملياته التخريبية، لإحداث فتن بين الأوس والخزرج في هذه الغزوة. وقد كان للرسول ﷺ رأي آخر في الموضوع، نتيجة الأوضاع القبلية الحساسة في المدينة(3).

كما أمره الرسول ﷺ بالإشراف الأمني على الطرق المتجهة من المدينة إلى مكة، قبل أن يشرع المسلمون في التوجه إليها لفتحها، وكانت تعليماته إلى رجاله "لا تدعوا أحداً يمر عليكم تنكرونه، إلا رددتموه" (4). وهذا الأمر يدل على أن عمر بن الخطاب كان بمثابة قائد تنظيم العيون والجواسيس في عهد النبي لما قام به من أعمال، وما كُلف به من مهام.

ب- العمليات الخاصة.

هي تلك العمليات التي تم تنفيذها لتصفية القيادات المعادية، التي أفشلت كافة الوسائل السلمية، في تحييد نشاطاتهم السياسية، والعسكرية، التي باتت تشكل خطراً جدياً على الدولة الإسلامية، وامتازت بأهدافها الصعبة والمتميزة، ومسرحها الجغرافي المتنوع، فعلى صعيد الأهداف، نجد أن العمليات استهدفت قيادات يهودية مثل كعب بن الأشرف، وأبي رافع سلام بن أبي الحقيق، كما شملت تلك العمليات قتل شخصيات عربية متهودة مثل عصماء بنت مروان من الأوس تلك الشاعرة سليطة اللسان المتنفذة في قومها بني خطمة، وقد كانت يهودية العقيدة، وقفت موقفاً عدائياً من المسلمين منذ البداية، فهجت الرسول ﷺ والمسلمين، فكلف النبي ﷺ عمير بن وهب الأنصاري الأوسي، بالتخلص منها، فقتلها داخل بيتها ليلاً (5).

ومن هذه الشخصيات أيضاً عملية قتل أبي عفك من الخزرج، الذي بلغ من العمر مائه وعشرين عاماً عند هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وعُرف بعدائه الشديد للمسلمين، واستخدم شعره

(1) البخاري، صحيح (3/ 33).
(2) الواقدي، المغازي (406/1)
(3) ابن هشام، السيرة (291/2)؛ ابن الاثير، الكامل (2/ 77).
(4) الواقدي، المغازي (648/2)
(5) الواقدي، المغازي (173/1).

للتحريض على النبي ﷺ مدفوعاً بعقيدته اليهودية، وقد قام سالم بن عمير الذي ينتمي إلى نفس الرهط من الخزرج، بقتله ليلاً في فناء داره (1).

كما شملت تلك العمليات قيادات عربية مشركة عُرفت بعدائها الشديد للإسلام والمسلمين، حيث تم قتل سفيان بن خالد الهزلي، وعملية قتل رفاعة بن رافع الجشمي، ومحاولة التخلص من أبي سفيان بن حرب، والأسود العنسي(2).

كما شملت أعمال العيون والجواسيس عمليات تضليل شملت حماية النبي ﷺ من محاولات الغدر، حيث تعرض النبي ﷺ خلال حياته إلى ست محاولات غادرة لقتله، كانت الأولى ليلة الهجرة، والثانية بعد معركة بدر على يد عمير بن وهب الجمحي، والثالثة من قبل بني النضير، والرابعة على يد دعثور المحاربي من غطفان، والخامسة على يد أعرابي، بتحريض وتخطيط من أبي سفيان، والسادسة على يد امرأة من بني النضير في خيبر(3).

"وقد رأينا جدوى هذه العيون، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه بعض أصحابه يفاجئون الأعداء وهم في مرحلة التجميع، والإعداد لمهاجمة المسلمين، الأمر الذي جعلهم يتفرقون، ويفرون في الجبال والوديان، لقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بجمع المعلومات عن طريق العيون التي بثها في هذه الأماكن البعيدة، وبذلك وضع سياجاً من الأمن حول المدينة، ولم يترك أعداءه يتخيرون مكان وزمان مقاتلة المسلمين، وهذا هو السبب في كثرة السرايا والغزوات خلال الزمن الفاصل بين "أحد" و"الأحزاب"(4).

مثل هذه الروايات تؤكد لنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لديه شبكة شبه منظّمة من العيون، مبثوثة بين أعدائه، جعلته دائماً وأبداً في الصورة معهم، يعرف سكناتهم وحركاتهم أولاً بأول، مما مكّنه كثيراً من الوقاء على مخطّطاتهم العدوانية ضد المسلمين ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل، مما وفّر على المسلمين الكثير من الجهد، وحقن الكثير من الدماء التي كانت ستسيل لو تمكّن أولئك الأعداء من استكمال مخطّطاتهم تلك وتنفيذها ضد المسلمين، وذلك ما كان يصبو إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم في مع أعدائه، لأنه عليه الصلاة والسلام كان حريصاً أشدّ الحرص على بلوغ أهدافه السامية من ذلك الجهاد المقدّس بأقلّ قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ودونما إراقة دماء كثيرة"(5).

(1) البلاذري، أنساب (1/ 373).
(2) الواقدي، المغازي (1/ 3).
(3) ابن هشام، سيرة (2/220-230).
(4) ابن هشام، سيرة (2/220-230).
(5) غزوة مؤتة، ص: 127.

الحرب الاستباقية.

لم تقتصر أعمال العيون في عهد النبي ﷺ على جمع المعلومات والعمليات الخاصة بل كان لها قوة ضاربة تستخدم لإجهاض أي محاولات لضرب دولة رسول الله ﷺ، بما يعرف في عصرنا الحاضر بالحرب الإستباقية فقد تمكن النبي ﷺ من خلال العيون من إجهاض تدابير أعدائه المتربصين به من القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة العربية، والذين كانوا يسعون لغزو المدينة، والقضاء على الدعوة الإسلامية، فكان يرسل السرايا إلى تلك القبائل برغم بعد المسافات بينه وبينها، ومن الغزوات التي أرسلها النبي ﷺ وكان من أعمال العيون والجواسيس، غزوة بني سليم في شوال من السنة الثانية للهجرة، وغزوة ذي أمر في محرم من السنة الثالثة للهجرة، وغزوة ذات الرقاع في شعبان من السنة الرابعة للهجرة، وغزوة دومة الجندل في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة، وغزوة بني المصطلق في شعبان من السنة الخامسة للهجرة أيضاً، وغزوة بني لحيان في جمادي الأولى من السنة السادسة للهجرة(1).

لقد استطاع النبي ﷺ من خلاله نجاح استخباراته العسكرية وامتلاك عنصر المبادئة من إحداث حالة من الصدمة والذهول لدى أعدائه الذين لم يجدوا بداً للهرب والهزيمة والالتجاء إلى الصحاري والجبال، تاركين ورائهم ديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين(2).

ج- عملية استطلاع عميقة.

لقد تجلت عبقرية النبي ﷺ في غزوة الخندق، عندما كلف حذيفة بن اليمان العبسي([3]) ﷺ بمهمة الدخول في صفوف الأعداء لمعرفة أخبارهم، قال حذيفة "دعاني رسول الله ﷺ فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا، قال فذهبت فدخلت في القوم (معسكر الأحزاب) والرياح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدر ولا نار ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر كل امرؤ من جليسه؟ فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان بجانبي فقلت من أنت؟ قال: فلان ابن فلان، وفي شرح المواهب: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فقلت من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت على يد الذي على شمالي فقلت من أنت؟ فقال: عمرو بن العاص"(4).

---

(1) الواقدي، المغازي (8/2)؛ ابن هشام، سيرة (2/ 60-209).

(2) البرهاوي، العيون، ص:128-134.

([3]) **حذيفة بن اليمان:** صحابي جليل ولد في مكة وعاش في المدينة المنورة ومات سنة 36هجرية في العراق. كان يكنى بحافظ سر الرسول، حيث أن الرسول كان قد أسر له بأسماء كافة المنافقين المحيطين بهم ولم يفش بهذا السر لأي كان وهذا هو شأن كل حافظ لسر. شارك حذيفة بكل المعارك والغزوات التي قادها النبي محمد عدا معركة بدر، وشهد فتح العراق والشام، وشهد اليرموك 13 هـ، وبلاد الجزيرة 17هـ ونصيبين، وفتوحات فارس. ابن سعد، الطبقات (6/ 59).

(4) ابن هشام، سيرة (2/ 232)؛ الذهبي، سير (362/2).

لقد كانت سرعة بديهة حذيفة بن اليمان ﷺعنصراً حاسماً في نجاحه في تنفيذ مهمته التي وُكل بها، مما يدلل على حسن اختيار النبي ﷺ للعيون التي يرسلها لتنفيذ المهمات الإستخبارية.

كما لم يغفل النبي ﷺ أهمية تعلم لغة العدو في إدارة المواجهة والحصول على المعلومات، وكشف أسرار الأعداء، حيث أمر ﷺ زيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود. قال زيد: "أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود بالسريانية وقال: أني والله ما آمن يهود على كتابي، ثم يقول زيد: فوالله ما زلت فيه فأتقنته، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم إليه"(1).

2- العيون والجواسيس في عهد الخلفاء الراشدين:

شهد هذا العصر تطوراً لافتاً لعمل العيون والجواسيس، حيث بدأت ملامح هيكلية التنظيم تظهر نظراً لاتساع حجم الدولة والمعارك التي تخوضها ضد أعدائها خصوصاً بعد انتهاء حروب الردة، حيث بدأ الانطلاق نحو تحرير الأراضي العربية المحتلة من قبل الفرس الساسانيين، والروم البيزنطيين، في العراق والشام والجزيرة العربية، ومصر، وشمال أفريقيا، ثم امتدت الفتوحات لتصل إلى بلاد فارس وخراسان وسجستان وكرمان وأرمينية وأذربيجان، وشمال القوقاز، وقد حتم عليها هذا الاتساع في حجم الدولة، ضرورة تنويع وتطوير مصادر المعلومات لديها، لمواجهة المشاكل المستجدة، التي أخذت تعقيداتها تظهر نتيجة لاختلاف الأوضاع الجغرافية والعقائدية...الخ؛ لذلك كان لا بد من تطوير فكرة التعامل مع غير المسلم، وغير العربي في وحدات العيون والجواسيس نظراً لمعرفتهم بالعادات والتقاليد واللغات والتضاريس والمناخ وأساليب الخصوم في القتال والسياسة في البلاد التي يُقيمون فيها، ولقد شكل العرب المسلمون الثقل الأساسي في وحدات العيون والجواسيس، كما أنهم كانوا على رأس إدارة هذه الوحدات بشكل عام، ففي معارك الردة كان العيون كلهم من العرب، وفي معارك التحرير والفتح لعبوا أدواراً متعددة لاسيما على صعيد الاستطلاع العميق، وفي مقاومة التجسس المضاد، والعمليات الخاصة، كما كان لهم دور مهم في تغطية أحداث الفتنة ومراقبة الجهاز الإداري(2).

لقد كان قادة هذا العهد ابتداءاً من الخلفاء وأشهرهم في هذا المجال عمر بن الخطاب ﷺ، وانتهاءاً بالقادة العسكريين والأمراء، فقد كانت لديهم معلومات عن أوضاع أعدائهم، وقد حصلوا عليها من خلال ممارستهم للتجارة فقد زار أبو بكر الصديق ﷺ الشام، وكذلك فعل عمر بن الخطاب ﷺ عندما زار فلسطين، كما زار عمرو بن العاص مصر والحبشة، وكذلك المغيرة بن شعبة (3).

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق (19/ 303)؛ ابن سعد، الطبقات (2/ 274).

(2) الواقدي، فتوح الشام (1/ 299- 2/ 214).

(3) البرهاوي، العيون، ص: 156.

أ- مصادر المعلومات في عهد الخلفاء الراشدين.

أنباط الشام، التجار والرسل(1)، أنباط العراق، عرب العراق، الفرس، سكان القوقاز، واليهود(2)، عرب الشام، الروم البيزنطيين(3)، الأقباط(4).

ب- إدارة العيون.

ما يميز العصر الراشدي هو تبلور المظهر العام لهيكلية لجهاز العيون والجواسيس الذي بدأ يظهر جلياً نظراً لاتساع التحديات نتيجة للتحولات العسكرية والسياسية و الاقتصادية والإدارية الكبيرة الناتجة عن اتساع رقعة الدولة وفتوحاتها الناجحة في كل البلاد، حيث تداخلت وتطورت إدارة العيون والجواسيس عما كانت عليه في عهد النبوة، من خلال إسناد الأمر للقادة الميدانيين والعمال، ولكنها كانت تتجمع بيد الخليفة الذي كان يراقب القادة والعمال (5).

وقد وقع على عاتق القادة العسكريين، وعمال الأمصار مهمة الإشراف على أعمال التجسس الخارجي، ومقاومة التجسس المضاد (6).

ويعتقد أن مراكز التسليح التي أقيمت على حافات الثغور المقابلة للعدو، وفي مفارق الطرق المهمة شكلت المقرات الخلفية لوحدات العيون، التي تعمل في مناطق الحدود وداخل أراضي العدو، حيث كانوا يرسلون التقارير الأولية إلى هذه المقرات، ومنها إلى قائد المنطقة، ثم إلى القيادة العامة(7).

فقد "خرج المثنى بن حارثة فى ثلاثمائة وسبعين من بكر بن وائل، وثلاثمائة من بنى تميم حنظلة وعمرو وسعد والرباب، فتلقى أبا عبيد ثم أقبل معه حتى نزل عسكره الذي كان فيه، ووضع عيونا على المسلحة التي بأليس فأتوه فأعلموه"(8). وكان سعد قد " وجه عيونا إلى الحيرة فرجعوا إليه بالخبر"(9).

" قال سفيان بن عوف بن معقل: بعثنى أبو عبيدة ليلة غدا من حمص إلى دمشق، فقال: ائت أمير المؤمنين، فأبلغه منى السلام وأخبره بما قد رأيت وعاينت، وبما جاءتنا به العيون، وبما استقر من كثرة العدو، وبالذي رأى المسلمون من التنحى عنهم، وكتب إليه معه: " أما بعد، فإن عيونى قدمت على ّ من أرض قنسرين ومن القرية التى فيها ملك الروم، فحدثونيبأن الروم قد توجهو ا إلينا وجمعوا لنا

(1) الطبري، تاريخ (346/3)
(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص: 297-323.
(3) ابن منظور، لسان العرب (373/7)
(4) إبراهيم العدوي، مصر الإسلامية، ص: 4-8.
(5) البرهاوي، المرجع السابق، ص:193.
(6) البلاذري، فتوح البلدان، ص: 177.
(7) الطبري، تاريخ (67/4)
(8) الاكتفاء (2/ 404)
(9) المصدر نفسه.

من الجموع ما لم يجمعوه قط لأمه كانت قبلنا، وقد دعوت المسلمين فأخبرتهم الخبر واستشرتهم فى الرأى، فاجتمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك، وقد بعثت إليك رجلا عنده علم ما قبلنا، فاسأله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم، وهو عندنا أمين، ونستعين الله العزيز الحكيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليك"(1).

"وقد كان عبد الله ابن المعتم وكل بالعرب ليدعوهم إليه وا إلى نصرته على الروم رجالا من تغلب وا إياد والنمر، فكانوا لا يخفون عليه شيئا، فأقبلت إليه العيون منهم بما فعلت الروم وسألوه للعرب السلم وأخبروه أنهم قد استجابوا"(2).

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يحث قادته الميدانيين على إطلاعه بصورة مستمرة على ما يستجد لديهم من معلومات، لكي ترتسم في ذهنه صورة واضحة، عما كل ما يجري في تلك المناطق، للتعرف على طبيعة المشكلات وكيفية حلهاوفي كتاب ٍ أرسله لسعد بن أبي وقاص ﷺ يطلب فيه الحصول على كل المعلومات يقول فيه: "وصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة، كأني أنظر إليها، واجعلني من أمركم على الجلية" (3).

ج- العمليات الخاصة.

كثيرة هي العمليات الخاصة التي قام بها العيون والجواسيس، والتي من أهمها عملية تحرير حلب مدينة تستر في خراسان، واختطاف الأسرى، وعملية التخلص من مالك بن الأشتر([4]).

كما شارك العيون والجواسيس في الحرب النفسية لضرب معنويات العدو الفارسي والبيزنطي، إضافة إلى عمليات التضليل التي كان لها أكبر الأثر في تحقيق انتصارات حاسمة في الشام على البيزنطيين وفي العراق على الفرس. ولا يمكن إنكار دورهم في إدارة التفاوض الفعال مع العدو، وتحقيق مكاسب سياسية وميدانية كبيرة. وكان لها دور بارز في عمليات الاستطلاع العادية للحصول على المعلومات، وكذلك الاستطلاع العميق للحصول على المعلومات بالقوة، وبتكليف من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قام العيون والجواسيس بمراقبة القادة وعمال الأمصار، ونقل أخبارهم إليه.(5)

يتضح مما سبق أن جهاز العيون والجواسيس شهد تطوراً لافتاً في هذا العهد أكثر بكثير من عهد النبوة نظرة لحجم التحديات التي كانت تواجهه الدولة الإسلامية، ولإدراك العمل الاستخباري من قبل القادة والمسئولين في الدولة الإسلامية وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين ﷺجميعاً .

---

(1) الحميري ، الاكتفاء (2/ 254)

(2) المصدر نفسه (2/ 531)

(3) الطبري، تاريخ (491/3)

([4]) **مالك الأشتر**: وصفة ابن حجر بأنه رئيس قومه وشهد خطبة عمر ﷺبالجابية، ذكره ابن حبان في الثقات من التابعين، وشهد اليرموك وذهبت فيها عينه، (ابن حجر، الإصابة (6/268-269).

(5) البرهاوي، العيون، ص: 198-215.

3- العيون والجواسيس في العهد الأموي:

شهد هذا العصر تطوراً كبيراً ونوعياً في عمل العيون والجواسيس، فقد تم العمل على إيجاد وتطوير مصادر المعلومات، من أجل الوصول إلى تقييم متوازن للتحديات التي تواجهها الدولة الإسلامية على المستويين الداخلي والخارجي.

فقد كانت التحديات الداخلية، التي واجهها جهاز العيون والجواسيس، أكبر بكثير من التحديات الخارجية على الرغم من خطورة الأخيرة.نظراً للعداء الكبير الذي كان يحدق بالدولة الإسلامية على طول خطوط حدودها، فقد كان النشاط العسكري للأعداء كبيراً، مما كان يضطر المسلمين للانتقال من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم، وقد انعكست الأوضاع الداخلية في الدولة الإسلامية بشكلٍ مباشر على الجبهات الخارجية، فعندما كانت التوترات والأحداث الداخلية تجري في الدولة الإسلامية، كان ذلك يؤثر على الجبهات الخارجية سلباً، وفي كل الجبهات سواء مع الدولة البيزنطية في ثغور الشام، والجزيرة، أو مع الخزر، والترك في أرمينية وأذربيجان، أو مع أتراك ما وراء النهر في أسيا الوسطى (1).

لقد تمثلت التحديات الداخلية في وجود حركة الخوارج، وحركات أخرى معارضة، وقد سعت هذه الحركات وخصوصاً الخوارج لتطوير عمل العيون والجواسيس، فقد كان للخوارج سراديب يجتمعون فيها، ويجعلون على بابها، رجلاً ينذرهم عند اللزوم، وقد طورت من أساليب عملها أكثر، حيث استطاعت أن تغيير من معالم الملاحقين من رجالها، ووصل بها الأمر إلى اختراق جهاز العيون والجواسيس التابع للدولة الأموية، وزرع جواسيسها فيه، إضافة إلى التخفي بزي التجار أو الحجاج عند الانتقال من مكانٍ إلى آخر (2).

أ- <u>مصادر المعلومات في عهد الدولة الأموية.</u>

تعدد مصادر المعلومات التي تحصل عليها الدولة الإسلامية فيالعهد الأموي بشكلٍ كبير وعميق، فربما تكاد تكون نفس المصادر التي كانت موجودة في العهد السابق (عهد الخلفاء الراشدين) إلا أن حجم المعلومات ودقتها والتجنيد في جهاز العيون والجواسيس من قبل المسلمين والجنسيات المختلفة أصبح أكثر عمقاً واتساعاً، الأمر الذي أتاح للدولة الإسلامية التغلب على كل خصومها في العصر الأموي الأول، وتحقيق الانتصارات والفتوحات التي وصلت إلى حدود الصين في آسيا الوسطى، ووصلت غرباً إلى الأندلس.

---

(1) الطبري، تاريخ (6/7-15)

(2) المسعودي، مروج الذهب (4/128-131)

ومن هذه المصادر العرفاء([1])، والتجار، والرسل، وعيون في القوقاز وبلاد الترك وفارس، إضافة إلى مصادر للمعلومات في قبائل البربر بالمغرب العربي، وكذلك مصادر إسبانية وبيزنطية، واليهود. إضافة إلى عمال الخراج والعيون، وصاحب الشرطة (2).

ب- إدارة العيون.

كان الخليفة الأموي هو القائد العام لجهاز العيون والجواسيس، فقد مارس دورة في إدارة العيون والجواسيس بشكلٍ مباشر، وفعال في معظم الأحيان، فكانت أوامره إلى عماله وقادته تستند إلى تقارير العيون في معظم الأحيان، وفي الوقت الذي كان فيه الخليفة يتولى الإشراف بصورة مباشرة على الإدارة الأمنية الداخلية، كان يترك الإشراف على أعمال التجسس الخارجي، لعماله، وقادته العسكريين في الأمصار و الجبهات، والذين كانوا يزودونه في الوقت نفسه بخلاصة الموقف بصورة مستمرة ليكون على إطلاعٍ تام.)3)

ولتنظيم العمل بطريقة مؤسسية سليمة، قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان، بإنشاء ديوان البريد، الذي يُعد أول مؤسسة استفاد منها العيون والجواسيس، من مميزاتها الإدارية والتنظيمية، وطبيعة التسهيلات التي تقدمها لاسيما على صعيد النقل السريع الآمن (4).

وقد تطورت صلاحيات ديوان البريد من مجرد وسيلة لنقل الخبر، إلى مؤسسة متخصصة في جمع الأخبار وتنسيقها، ثم نقلها، وقد كان الدافع وراء هذا التطور هو إدراك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لحجم التحديات الهائلة التي واجهها أثناء فترة حكمه على المستويين الداخلي والخارجي، ولذلك كانت وصيته لصاحب حرسه ابن الزعيزعة: "والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يحجب" (5).

وتشير معظم المصادر التاريخية إلى أن الإشراف على البريد كان أمراً صعباً، ومسئولية كبيرة، وكان يختار لها شخص ذو مواصفات خاصة نظراً لحجم وطبيعة العمل التي كانت تمارسها هذه المؤسسة فبالإضافة إلى مهمة جمع الأخبار ونقلها فقد كان ديوان البريد يمارس ثلاث مهام أساسية هي: نقل الولاة المعينين أو المنقولين إلى مناطقهم الجديدة، وبصورة سرية في معظم الأحيان (6).

([1]) **العرفاء:** يقصد بلعريف لغة، سيد القوم، ويلي رئيسهم من حيث المنزلة، واصطلاحاً هو ذلك الشخص الذي تتعرف عن طريقه السلطات على أحوال القبيلة، وكان منصب العرافة في عهد الرسول ﷺ وسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي، والاقتصادي، فقد كان المهاجرون الجدد ينزلون علىعريف قبيلتهم، وا ٍن لم يكن لهم عريف، نزلوا على المسئول. وفي العصر الراشدي، كان دورهم الإشراف على جمع الصدقات، وفي قضايا التجنيد الإجباري، وكذلك في توزيع العطاء. ابن الأثير، أسد الغابة (529/3)؛ ابن منظور، لسان العرب (238/9).

(2) البرهاوي، العيون، ص: 230-243؛ ابن الأثير، الكامل (118/5)

(3) ابن الأثير، الكامل (268/5)

(4) ابن منظور، لسان العرب (86/3)

(5) ابن الأثير، الكامل (119/5)

(6) الطبري، تاريخ (321/6-615)

ونقل القطاعات المهمة والصغيرة من الجند إلى الجبهات في أوقات الأزمات (1). ونقل طلبات الخليفة من المواد أو الأشخاص (2).

ج- العمليات الخاصة.

تشير المصادر التاريخية العمليات النوعية التي نفذها جهاز العيون والجواسيس في الدولة الأموية، والتي كان من أشهر العملية التي خطط لها وأشرف على تنفيذ الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والتي تمثلت في خطف قائد بيزنطي من القسطنطينية إلى دمشق، والتي سبق الإشارة إليها في بداية هذا الفصل (3).

كما استخدم العيون والجواسيس في المهام الدبلوماسية التي زادت أنشطتها في هذا العهد بشكلٍ كبير. إضافة إلى مشاركتها في الحرب النفسية ضد الأعداء واستخدامها لأساليب التضليل، والاستطلاع العادي والاستطلاع العميق، ومراقبة الجهاز الإداري، وكذلك مراقبة أداء القادة العسكريين، وعمال الأمصار بأمر من الخليفة (4).

كما كان له جهد مميز في اختراق التنظيمات المعادية (5).

يتضح من العرض السابق حجم التطور الكبير في عمل جهاز العيون والجواسيس ومؤسسته في إطار ديوان البريد الذي كان بمثابة الإطار التنظيمي لهذا الجهاز وبحجم المهام الكبيرة والخطيرة التي أوكلت له، الأمر الذي كان له انعكاس مباشر على أداء الدولة على المستوى العسكري والسياسي داخلياً وخارجياً . وعندما ضعف أداء هذا الجهاز في عهد الخليفة مروان ابن محمد، كان أحد أهم أسباب انهيار الدولة الأموية، وصعود نجم الخلافة العباسية.

4- العيون والجواسيس في العهد العباسي:

شهد هذا العصر تطوراً ملحوظاً في عمل جهاز العيون والجواسيس خصوصاً بعد نجاح الثورة العباسية في القضاء على فلول الأمويين(6).

وقد ساعد على تطور هذا الجهاز في العصر العباسي الأول هو كثرة الأعداء على المستويين الداخلي والخارجي، حيث كان الرفض كبيراً لوجود الخلافة العباسية من أكثر من جهة داخلية،

---

(1) الطبري، تاريخ (6/294-339)

(2) المصدر نفسه.

(3) المسعودي، مروج الذهب (4/126-131)

(4) البلاذري، أنساب (5/248-249)

(5) الطبري، تاريخ (2/35)

(6) المقدسي، البدء والتاريخ (6/ 74)

فالعلويين كان يعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة من بني العباس لذلك لم يدخروا جهداً في تأليب الناس في الأمصار من أجل استعادة ما كانوا يعتبرونه حقهم في الخلافة (1).

إضافة إلى ثورات كثيرة من قبل الجند وعمال الأمصار الذين كانوا يعملون في الدولة العباسية، ففي ظل فترة حكم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور التي استمرت حوالي عشرين عاماً، نجح في التصدي لأكثر من ثلاثمائة ثورة وتمرد (2).

ولو لم يكن جهاز العيون والجواسيس يعمل بصورة جيدة لما تمكن العباسيون من التصدي لأعدائهم، والثورات المضادة والتي كان من أشهرها نجاح جهاز العيون والجواسيس في تتبع أخبار القائد أبو مسلم الخراساني والي خراسان الذي حاول التمرد على حكم أبي جعفر المنصور، ولكن الأخير بدهاء ومكر وحسن تدبير استطاع أن يستدرجه إلى بغداد، وأن يقتله وبالتالي يقض على محاولته للانفصال بخراسان عن الدولة العباسية(3).

وفي عهد هارون الرشيد شهد عمل العيون والجواسيس تطوراً آخر، اتضحت معالمه بقيام الخليفة هارون الرشيد بإصدار تعليماته بتعريب الدواوين والتي كان منها ديوان البريد، وديوان الجند حيث كانت اللغات التي تكتب في هذه الدواوين هي الفارسية واليونانية. وقد كان لهذا العمل الأثر البالغ في تطور عمل ديوان البريد، حيث سهلت عملية التعريب التحاق الكثير من أبناء الأمة بالعمل الاستخباري.(4)

أ- مصادر المعلومات.

لم تختلف مصادر المعلومات عما كانت عليه في العهد الأموي، بل بقيت كما هي، ولكن ما يمكن ذكره في هذا الصدد، هو تشتت عمل العيون والجواسيس بعد انتهاء العصر العباسي الأول، وتحكم القادة العسكريين من الترك في أمور الدولة العباسية، وبالتالي ظهور الصراعات الداخلية بين هؤلاء القادة، إضافة إلى ظهور الفرق الشعبية وحركات التمرد، الأمر الذي انتهى بنجاح التتار في احتلال بغداد، والقضاء على الخلافة العباسية(5).

ب- إدارة العيون.

في العصر الأول كانت إدارة العيون بيد الخليفة العباسي، ولكن بعد انتهاء هذا العصر واتساع الدولة، شهد انتقال المسئولية إلى أيدي القادة العسكريين وعمال البريد من الترك والذي بدأ في

(1) مصطفى، دولة بني العباس (2/92- 102)

(2) كنعان، تاريخ الدولة العباسية، ص: 18- 57.

(3) المرجع نفسه، ص: 20- 27.

(4) المرجع نفسه، ص: 60- 100.

(5) مجهول، أخبار، ص: 292؛ فوزي، و حميدة، تاريخ، ص: 13- 22.

عهد الخليفة المعتصم بالله، وما تلاه من حالة الانحطاط والتراجع للدولة العباسية، لذلك كان ديوان البريد معرضاً للاختراق من قبل الأعداء والخصوم على حدٍ سواء(1).

ج- العمليات الخاصة.

شهد العصر العباسي الأول عمليات خاصة ونوعية كان أهمها عملية القضاء على أبي مسلم الخراساني، وملاحقة بني أُمية والنجاح في القضاء على أخر خلفائهم مروان بن محمد في منطقة الفيوم بمصر، ونجاح أبو جعفر المنصور في القضاء على كل الثورات وحالات التمرد التي شهدها عصر، كما شاركالعيون في عملية التفاوض والعمل الدبلوماسي مع الدولة البيزنطية والذي شهد تطوراً كبيراً في عهد هارون الرشيد، إضافة إلى مشاركتهم في الحرب النفسية وعمليات التضليل، ولم ينجح هذا الجهاز في مراقبة القادة العسكريين والولاة، وشهد العصر العباسي الثاني انفصال العديد من الأمصار، كما شهد بروز نجم الدولة الزنكية والدولة الأيوبية التي مارست العمل الاستخباري بطريقة أكثر مهنية، وأكثر نوعية(2).

(1) المقدسي، البدء (6/ 74)؛ مجهول، أخبار، ص: 292؛ فوزي، تاريخ (2/78- 97)

(2) فوزي، الخلافة العباسية (2/162- 200)

الفصل الثاني
وحدات العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي

حتمت طبيعة الصراع المرير بين المسلمين و الفرنجةأن يكون للعمل الاستخباري دوراً بارزاً ومؤثراً في الأعمال السياسية والحربية،نظراً للتعقيدات والتداخلات الميدانية بين الطرفين، لان الوجود الفرنجة في بلا الشام لم يكن وجوداً استعمارياً بل كان وجوداً استيطانياً إحلالياً بالدرجة الأولى.

ومن خلال رصد الباحث لملامح عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي، وجد أن الدولتين استثمرتا أساليب وأدوات عمل العيون والجواسيس في العهود السابقة ، وحاولت تطويرها و البناء عليها. لذلك رصد الباحث وجود هيكل شبه تنظيمي لجهاز العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي يحاكي في مهامه عمل أجهزة الاستخبارات الحديثة.

فقد أقام عماد الدين زنكي جهازاً للعيون والمعلومات، وخصص له الموظفين والرواتب وقد ورد عنه أنه: "كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره وحرب وسلم، وهزل وجد، وكان (يصرف) على ذلك الأموال الجليلة، وكان يصل إليه في كل يوم عدة قاصدين أو كتب"(1)،كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار(2)، وقد اتصف عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال فكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه، وا ٍذا أستأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجمتع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة(3)، كما كان لا يمكن أحد موظفيه من مغادرة بلاده ويعلل ذلك بأن البلاد، كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها(4)وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى وا ٍلحاحه بإعادتهم إلى إماراته حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة(5)، وقد قدم جهاز العيون والجواسيس خدمات مهمة له في ظروف شتى ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام 531هـ/ 1147م ، وحصار الرها عام 539هـ/ 1145م، كما كان يستخدمه عماد الدين على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح (6).

([1]) ابن الأثير، الباهر، ص: 78.

(2) المصدر نفسه، ص: 78.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب (209/2).

(4) المصدر نفسه.

(5) أبو شامة، الروضتين (3/ 283).

(6) ابن الأثير، الكامل (209/9)

وسار ابنه نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي([1]) وخلفائه من بعده على نفس هذه الخطى،ومن أهم وحدات جهاز العيون و الجواسيس التي تم رصدها:

أولاً : البريد.

تُعد وحدة البريد من الوحدات الهامة في عمل العيون في العهدين الزنكي والأيوبي نظراً لاحتدام الصراع مع الفرنجة، **فـ**"البريد جناح الممالك، ورائد المهمات الإسلامية فيما قرب أو نأى من المسالك، وبه تنفذ المهمات في أوقاتها، وتتوافق الحركات فيما يتعين من ميقاتها، وتعرف أحوال الثغور على اتساع أطرافها واختلاف جهاتها"(2)، وقد تطلب الأمر وجود قوة استطلاعية صغير ة تهتم باستطلاع وجلب أخبار العدو، لمعرفة مدى قوته من حيث التعبئة والتدريب، والأسلحة والعتاد، وكذلك رصد تحركات الجيش، إضافة إلى إرسال الأخبار وتسليمها من أطراف البلاد، ولحرص مسئولي الدولة في العهدين الزنكي والأيوبي على سرية المعلومات، وعدم تسربها إلى الأعداء، خصوصاً ما يتعلق فيها بالجيش الإسلامي وأحواله، فقد عمدوا إلى إنشاء ديوان البريد، وكُلف بإدارته نخبة من الموظفين أصحاب الكفاءات الخاصة، وأُعد له نظام خاص به يضبط تحركات العاملين فيه، ويحدد مواصفاتهم، والخيول المستخدمة في عملهم(3).

فقبل بداية العهد الزنكي كانت الأخبار ترسل بواسطة الخيول التي تم تميزها بقص الذنب حتى تكون هذه العلامة مميزة لها عن غيرها من الخيول، وبقي أمر البريد على حاله إلى أن جاء عهد آل زنكي وآل أيوب الذين طوروا وحسنوا أداء ديوان البريد، ومن هذه التحسينات أن أدخلوا النجب([4]) للعمل إلى جانب الخيول، وبقيت النجب تستخدم في البريد حتى انتهت دولتهم على يد الدولة المملوكية(5).

ومن الأنظمة المميزة لديوان البريد وترتيب عمله قام الزنكيون بترتيب أمرين هامين: الأول يتعلق بمحطات البريد، والثاني يتعلق باختيار العاملين الميدانين (البريديون). بالنسبة للمحطات فقد تم إنشاؤها بين أطراف وأقاليم البلاد، وكان البريديون يوصلون البريد إليها كلٌ حسب المحطة المجاورة له، ليتم نقلها من محطة إلى أخرى حتى تصل إلى صاحبها، وكانت المحطات تزود بالماء والزاد والعلف،

([1]) صلاح الدين الأيوبي: يرجع أصل صلاح الدين الأيوبي إلى الأكراد، وقد هاجر والده نجم الدين أيوب بن شادي وعمه أسد الدين شيركوه بن شادي من بلده دفين Divin في أرمينيا، وقد انخرطا في خدمة عماد الدين زنكي أتابك الموصل. يعتبر صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية وأشهر سلاطينها، وقد حاز صلاح الدين شهرته الكبيرة هذه في المشرق الإسلامي والغرب الأوروبي وعند المسلمين والمسيحيين على حدٍ سواء نظراً للدور الكبير الذي لعبه في الجهاد ضد الصليبين، وقد كانت جهود صلاح الدين ضد الصليبين بانتصاره الساحق عليهم في معركة حطين سنة (583هـ/1187م)، توفي رحمه الله في عام (588هـ/1193م). ابن الأثير، الكامل (10/ 118).

(2) ابن الأثير، الكامل (10/ 118).

(3) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 173.

([4]) **النجب:** هو جمع نجيب،و النجيب من الإبل هو القوي منها، الخفيف السريع. الفراهيدي، العين (152/6)؛ ابن منظور، لسان العرب (1/ 748)

(5) محمد كرد علي، خطط الشام (18/5)

ويوفر فيها المكان الخاص ليقيهم برد الشتاء وحر الصيف، وكذلك من هذه المحطات يستطيع البريديون أن يستبدلوا هجنهم المتعبة بأخرى مستريحة، تعينهم على تأدية واجبهم بأقصر وقت وأيسر – سبيل(1).

أما بالنسبة لعملية اختيار العاملين فقد كان البريديون يُختارون من بين أشخاص عُرفوا بالكفاءة والأمانة والذكاء، والعلم بطبيعة الأرض التي يعملون بها(2).

وفي مواصفات البريدي، أن يكون " ممن عرف منه السبق وألف، وسلم له التقدم في السرعة من نظرائه فما أرتيب في ترجحه ولا اختلف عليه، فكأنه شهاب يتوقد في سمائه، أو برق تألق في أذيال الغمام بسرعة وميضه وانطوائه"(3)، وينبغي أن يكون "قديراً على تنسيق الكلام، وتحسين العبارة، وأن يكون صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين واستحكام ومنعة صدوقاً بريئاً من الطمع"(4).

أما الأوسي الأنصاري فيفرد صفات كثيرة ينبغي أن تكون في البريدي والتي يذكرها في باب العيون والجواسيس؛ "كأن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه، وذا حدس صائب، وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو، وبالمشاهدة ما كتمه العدو عن النطق به يستدل ببعض الأمور على بعض، وأن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة، وله دربة بالأسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه إليها، وعارفاً بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها، وليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو، على ألا يكون من جنس العدو، فإن الجنس يميل إلى الجنس بالطبع، وأن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من العقوبة إذا ظفر به العدو، حتى لا يخبر بأحوال مرسلة، ولا يطلع على وهن فيه وفي عسكره"(5).

إن تنظيم بهذه المواصفات وهذه الإدارة لابد وأن يكون له اليد الطولي في المواجهة مع الفرنجة، ولابد أن يكون صاحب الانتصارات بعد توفيق الله، وهذا هو حال بريد وعيون الزنكيين والأيوبيين، إلا أن سمعة هذا الديوان برزت وخلدها التاريخ من غيرها في عهد صلاح الدين الذي تفوق على الفرنجة وحقق النصر عليهم، وقد تجسد ذلك في أكثر من واقعة.

فالبريد من الترتيبات العسكرية العامة التي قررها السلطان صلاح الدين سنة 567هـ/1171 م استخدم البريد الحربي، نقلا عن مخدومه نور الدين، ورتب لذلك في كل ثغر رجالا، ومعهم حمام المدينةالتي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه إلى المدينة التي

---

(1) مشرفة، نظم الحكم، ص: 132.

(2) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 174.

(3) العمري، مسالك (12/ 380)

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 2 ص: 116.

(5) الأنصاري، تفريج الكروب، ص: 17.

هو منها في ساعته، فتنتقل الرقعة من الطائر إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، وقد شرح القاضي الفاضل في إحدى رسائله ما كان يؤديه به الحمام من دور فعال في هذا الشأن. ومما قاله في هذه الرسالة: "سرحت لإنزال أجنحتها محملة البطائق أجنحة، وتجهيز جيوش القاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتطوي الأرض إذا نشرت الجناح الطائر، وتزوي به الأرض ما يبلغه ملك هذه الأمة، وتضرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه ولا همه وقد أخذت عهود الأمانة في رقابها أطواقا، وصارت خوافي من وراء الخوافي، وغطت سرحها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الضوافي، ترغم أنف النوى بتقريب العهود، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ أنجم السعود، وهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنباء، وخطباؤها لأنها تقوم على الأغصان مقام الخطباء"(1).

ففي موقعة الرملة التي حدثت سنة (573هـ/1177م) بجنوبي فلسطين، والتي انتهت بهزيمة الجيش الأيوبي، أثبتت أحداثها اللاحقة أن صلاح الدين كان يملك بريداً فعالاً، استطاع بسرعته وخفة حركته أن يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر، والتي أفادت بمقتل صلاح الدين حيث قضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين طمعوا في ملك صلاح الدين، وحاولوا الانقضاض على الحكم الأيوبي في مصر حيث أرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسله على الهجن إلى القاهرة، ليؤكد لكل من سوَّلت له نفسه التمرد على حكمه، أنه ما زال على قيد الحياة، وحمل الحمام الزاجل بطائق البشري بعودته إلى القاهرة(2).

وفي سنة (578هـ/ 1182م)، قام صلاح الدين بغارة على قلعة الكرك، وضرب حصاراً عليها لمدة عشرة أيام، ولما رأى قلة زواد جيشه، أمر بالرحيل، والعودة إلى مصر، فبينما هم" سائرون إذ أتاه نجابون يبشرونه بنصرة عز الدين فرخشاه في غزة دبورية"(3).

إن هاتين الحادثتين توضحان مدى قوة جهاز العيون عند صلاح الدين، حيث تشير المصادر التاريخية إلى أن "أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح"(4)، وخصوصاً في حال اصطدام المعارك، ونذكر منها حصار عكا.

لقد استطاعت عيون صلاح الدين أن تضم إليها بعضاً من الفرنجة الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة.

---

(1) نغش، الرسائل، عدد 55 – 56، ص:191.

(2) أبو شامة، الروضتين (1/ 702)

(3) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق (2/ 94).

(4) ابن شداد، النوادر، ص: 148.

ثانياً : وحدة الحمام الزاجل.

كان الحمام الزاجل، أو ما يسمى بالحمام الهوادي من أبرز سبل الاتصال البريدي في العصور القديمة والوسطى، وقد ازدادت أهميته في العهدين الزنكي والمملوكي نظراً لسرعته في نقل الأخبار والرسائل فقد اعتنى به المسلمون أشد الاعتناء، حيث وصف بأنه " ملائكة الملوك"(1).

و" اعتنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي ّ بحمام البطاقة اعتناء زائدا، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر أنّه من ولد الطير الفلاني ّ ؛ وقيل إنّه باع طيرا بألف دينار"(2).

وقد اتخذها نور الدين محمود كأهم وسائله في الاتصال والتواصل مع مملكته الكبيرة التي بلغت من الاتساع إلى حد النوبة في جنوب مصر وحتى همذان في الشرق لا يتخللها إلا بلاد الفرنج وكلهم تحت قهره وهدنته، ولذلك اتخذ في كل قلعة وحصن الحمام الذي يحمل الرسائل إلى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة، وعملت الدولة الزنكية على تظيم عمل الحمام الزاجل فبنت الأبراج الخاصة للحمام على طول البلاد وعرضها وكانت هذه الأبراج بمثابة المطارات المنتظمة للحمام الزاجل وقد عينت على هذه الأبراج براجون أو حراس برعوا في الاعتناء بشئونه، في تدريبيه وا إطعامه وراحته، وكذلك في إطلاقه واستقباله(3)، وقد جرت العادة أن الطائر إذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده، بل يأخذه إلى الخليفة أو السلطان، خشية أن يكون في البطاقة سر ينبغي عدم الإطلاع عليه، وحتى لو كان الوقت غير ُ مناسباً بالنسبة للسلطان كأن يكون السلطان يتناول طعامه أو نائماً ، كان يترك طعامه أو يوقظمن نومه، حتى لا يفَّوت على نفسه ورعيته الأمور الهامة العاجلة، فيفك الرسالة بنفسه، أو يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة(4).

وبرغم كل الحرص في نقل الرسائل عن طريق الحمام الزاجل، إلا أنه كانت ثمة مشاكل تعترض سبيله مثل صيد الحمام، أو افتراسه من قبل الطيور الجارحة في الجو؛ لذلك كانت الرسالة ترسل بواسطة حمامتين تحملان نفس الرسالة، بفارق زمني بسيط حتى يضمن المرسل وصولها، وأنه في حال ضبطت واحدة، يمكن أن تصل الأخرى، وكان البراجون لا يطلقون الحمام في الجو الممطر، وقبل تغذيتها الغذاء الكافي(5).

وكانت الرسائل خفيفة، تكتب على ورق خفيف، وكلام مختصر ومعبر، كما كانت الرسائل تخلو من البسملة وتؤرخ بالساعة واليوم، ولا تربط إلا تحت الجناح، لحفظها من المطر إذا هطل بعد إطلاق الحمامة إضافةإلى قوة الجناح، وا إذا وصلت الحمامة إلى البرج الذي وجهت إليه، أمسكها

---

(1) ابن كثير، البداية والنهائية (269/12).

(2) ابن تغري بردي، النجوم لزاهرة (6/ 138)

(3) أبو شامة، الروضتين، (2/ 229-230).

(4) نغش، الرسائل الحربية في عصر الدولة الأيوبية (55 - 56/ 191).

(5) القلقشندي، صبح الأعشى (1/ 45)

البراج الذي يليه، وهكذا حتى ينتهي إلى برج المدينة التي فيها السلطان أو الشخص المرسل إليه، فيأخذ البراج الحمامة والبطاقة في جناحها ويحضرها بين يديه(1).

لقد استخدمت مجموعات العيون والجواسيس الحمام الزاجل في نقل الأخبار من جميع أنحاء الدولة، سواء من الداخل أو من المناطق التي كانت تخضع للاحتلال الفرنجة، لقد كانت الأخبار تأتي من قبل العيون إلى نور الدين محمود في وقتها، "لأنه جعل في كل ثغر رجال مرتبون، ومعهم من حمام المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك حتى إن طائفة من الفرنج نزلوا ثغراً له فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم فرحم الله نور الدين ورضي عنه فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد"(2).

تؤكد المصادر التاريخية أن أتابكة الموصل كانوا أكثر من أولى الحمام اهتمامهم، وهذا ما يقال بالنسبةلنور الدين محمود وصلاح الدين، نظراً لظروف الصراع مع القوى التي عاشتها هذه الأسرة الحاكمة التي اهتمت كثيراً بالبريد الجوي، أو ما كان يطلق عليه في الدولة الفاطمية بالحمام الزاجل(3).

لقد استعمل الحمام الزاجل في إقليم الجزيرة منذ بداية العهد الأتابكي، فقد ذكر ابن الأثير أن عماد الدين زنكي مؤسس أتابيكية الموصل، "بينما كانفي خيمته إذ رأى طائراً سقط على خيمة مجاورة، فأمر بصيده فرأى به رقعة ففتحها، فوجد فيها ما لا يسره فأمر بتغيير محتواها بما يقتضي مصلحته "على جناح الطائر وأرسله فما قرأ المدافعون عن نصبين الرقعة، خافوا على نفوسهم، وعلموا أنهم عاجزون عن حفظ البلد هذه المدة، فأرسلوا إلى زنكي وصانعوه، وسلموا إليه القلعة "(4).

وبالرغم من سرعة وأفضلية الحمام الزاجل في توصيل الرسائل، إلا أن الرواية سابقة الذكر توضح أن حالة الاختراق الأمني واردة وبقوة، وهذا ما نجح فيه عماد الدين زنكي، الذي استطاع أن يحرز النصر دون قتال، وأنه وبلا شك فإن الرسائل المرسلة عبر الحمام الزاجل قد تقع في أيدي الأعداء الأمر الذي ستكون له عواقب وخيمة.

لقد بلغ الاهتمام بالحمام ذروته أيام نور الدين محمودزنكي ويُقال أنه أول من اعتنى به بشكل كبير قبل وفاته بعامين، إثر القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر سنة (567هـ/ 1171م) فاتخذ

(1) القلقشندي، صبح الأعشى (1/ 45)

(2) أبو شامة، الروضتين (2/229-230)

(3) أبو شامة، الروضتين (2/229-230)

(4) ابن الأثير، الباهر، ص: 37.

الحمام الزاجل نظراً لاتساع بلاده، وأجرى الرواتب على المرتبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين(1).

وزاد صلاح الدين من "ربط مصر بالشام بواسطة البريد الجوي حتى صارت هناك شبكة من المهابط (المطارات) في مصر والشام، تمتد من أقصى جنوب مصر من أسوان في الصعيد، وعيزاب على البحر الأحمر إلى القاهرة، ومن أسوان إلى القاهرة فالسويس، وإلى بلبيس كلٌ على حدة، ثم من بلبيس إلى بلاد الشام، ومن بلبيس أيضاً إلى الصالحية، وإلى قطيا(2). ومن قطيا إلى الورادة في الطريق إلى غزة، ثم غزة "(3)، فكانت بلبيس الواقعة شرقي القاهرة " مركز المهابط في مصر، ومثلها كانت غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط إلى الخليل، وإلى اللد، ومنها إلى قاقون(4)، ثم جنين فصفد فبيسان فإربد فطفس، ومنها إلى الصنمين(5) فدمشق، ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاورها من المدن، فمن بيسان إلى أذرعات ومن دمشق يسرح الحمام إلى بعلبك وكذلك إلى قارة ومن قارة أيضاً إلى حمص، ومنها إلى حماة فالمعرة فحلب فالبيرة، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية"(6).

يتضح من خلال تحليل شبكة محطات البريد الجوي التي كانت قائمة في عهد نور الدين محمود أن تربية الحمام والاهتمام به أصبح رائجاً، وأن المهابط التي كانت تتواجد في المدن المذكورة آنفاً كانت تحوي أعداداً كبيرة من الحمام، حيث تذكر المصادر أن برج قلعة القاهرة كان يحوي وحده أكثر من ألفي طائر(7).

ولقد استفاد نور الدين من الحمام الزاجل، وهناك العديد من الأمثلة الدالة على ذلك فبعد " نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات وإلقاط بريدها شق الطائر من العسكر بظاهرها بكنيسة بانياس يأتي بالإعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب فأتى خذلهم الله تعالى أنهضوا سيئة من أعيان مقدميهم وأبطالهم تزيد على مئة فارس سوى أتباعهم لكبس العسكورين ظنا منهم بأنهم في قلة فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والمزيق ومنهم إلا اليسير"(8).

---

(1) ابن الأثير، الكامل (375/11)؛ أبو شامة، الروضتين (2/ 229-230).

(2) **قطيا:** قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما، معجم البلدان (374/4)

(3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (1/ 418)؛ حسين، الجيش الأيوبي، ص: 185-186.

(4) **قاقون:** حصن بفلسطين قرب الرملة على مسافة نصف يوم من قيسارية، معجم البلدان (299/4)

(5) **الصنمين:** قرية من أعمال دمشق في أوائل حوران، بينها وبين دمشق مرحلتان، معجم البلدان (431/3)

(6) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 185- 186.

(7) المقريزي، المواعظ (3/ 402).

(8) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص: 522؛ أبو شامة، الروضتين (341/1)

كما استفاد الجيش الأيوبي من الحمام الزاجل كثير فقد استعمله صلاح الدين ونوابه في حالات الشدة، حيث أُرسلت البشائر من فلسطين إلى مصر بنجاة السلطان في موقعة الرملة التي هُزم فيها الجيش الأيوبي. وكان الجيش الأيوبي يصحب معه حمام الجهة أو الجهات التي ينوي الاتصال بها، أو حين كان يبغي طلب المعونة منها، كما حدث في سنة (574هـ/ 1178م) حين اجتمع الفرنجة، وساروا نحو دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها ونهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه عز الدين فرخشاه في جمع من العساكر إليهم، وأمر أنه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم(1).

كما تذكر المصادر التاريخية أن حادث شبيه وقع في مخاضة بيت الأحزان سنة (575هـ/1179م) إذ "وردت بطاقة الطير إلى دمشق، فخرج السلطان، فما وصل إلى الكسوة القريبة من دمشق، إلا ورؤوس الفرنجوأسراهم قد جيئ بها، فرجع مظفراً منصوراً "(2).

إن تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف أنحاء البلدان أثناء مرابطته الطويلة على عكا تؤكد على قوة تنظيم البريد الجوي في هذا العهد، وبالتالي قوة الاتصال والترابط عبر العيون والجواسيس وأصحاب القرار في الدولة. حيث يذكر ابن شداد أنه أثناء رمضان (586هـ/ 1190م) أرسل حمام حلب إلى حماة، ومن حماة إلى عكا، وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود إمارة أنطاكية القريبة من حلب، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها بقيادة الملك الظاهر إلى عكا، إلا أن القوات الباقية في حلب استطاعت من وضع الكمناء الذين استطاعوا دحر المعتدين(3) الذين " لم يشعروا إلا والسيف قد وقع فيهم، فقُتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً وأُسر منهم خلقٌ عظيم "(4).

ثالثاً : وحدة اليزك (الاستطلاع).

اليزك: لفظ فارسي، معناه (طلائع الجيش) وينبغي التميز بين ما يعنيه اليزك بهذا المعنى، وبين (الجاليش) الذي يعني مقدمة القلب في الجيش، أو الطليعة منه، فالجاليش هو الجزء الأمامي من مركز القلب أو قلب الجيش الذي يسير برمته نحو القتال، أما اليزك فهو جماعة الاستكشاف التي ترسل إلى جبهة العدو قبل توجه الجيش نحوه. فالمهمة التي يقوم بهام عناصر اليزك كانت جزءاً من نظام العيونوا يصال المعلومات العسكرية الآنية إلى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة. وبالتالي يمكن

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (452/11– 453)

(2) أبو شامة، الروضتين (6/2)

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 143؛ انظر: حسين، الجيش الأيوبي، ص: 187.

(4) ابن شداد، النوادر، ص: 143؛ الروضتين (3/ 21)

تعريف اليزك على أنهم عبارة عن "الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها أفراد مختصون يكونون تحت الطلب، ليذهبوا ويتعرفوا عن كتب على ما يفعله العدو أو ينوي القيام به"([1]).

تُعد هذه الوحدة من أهم وحدات العيون الزنكية والأيوبية، لتعدد مهامها، وخطورة ما تقوم به من عمليات لذا كان يختار عناصرها من بين أهل النصح والنجدة والتجربة والحرب، فالمهمة التي كان يقوم بها مقاتلوا وحدة اليزك كانت جزءاً من نظام العيون وا إيصال المعلومات العسكرية الآتية إلى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة؛ لذلك كانت توكل قيادتها لكبار رجالات البيت الأيوبي، أمثال الملك الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي، والملك العادل، والأمير بدر الدين دلدرم اليارقي، وعز الدين ابن المقدم، وعلم الدين سليمان جندر وغيرهم من هم في طبقتهم، حيث كانوا يقودون هذه الفرقة بالتناوب فضلاً عن الإشراف على تدريبها على فن تقصي أخبار العدو ومعرفة خططه الحربية(2).

وبعد الانتهاء من عملية التدريب يزود الجند الملتحقين بوحدة اليزك بالجياد الهادئة والسريعة والتي تمتاز بجودة الحوافر والظهر ممن لا تهيج بسهولة، ومن أجل منحهم قدراً عالياً من الخفة والسرعة في الحركة، كانوا لا يلبسون الدروع ولا يحملون التروس، وغيرها من الأثقال التي تعيق حركتهم(3).

أما تقارير وحدة اليزك فقد كانت تصدر مرتين في اليوم وهي تقارير استطلاعية بالدرجة الأولى، وكانت تتصف هذه التقارير بالدقة والتفصيل عن الأهداف المطلوب رصدها، ولعل ما قدمته المصادر من وصف لعمليات الإعدام الجماعي لأسرى المسلمين في مدينة عكا بعد سقوطها بيد الفرنجة خير شاهد على الكفاءة العالية التي وصلت إليها في جمع المعلومات، فقد وصفت كيفية الإعدام، وعدد من أُعدم.

يقول ابن شداد ناقلاً ما جاء في تقرير اليزك: "ثم أحضروا أسارى المسلمين وأوثقوهم بالحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبراً وطعناً وضرباً بالسيوف، واليزك الإسلامي يشاهدهم، وقد قتلوا ثلاثة آلاف أسير مسلم ولم يبقوا من المسلمين إلا الرجال الذين عرفوا على العمل لتسخيرهم في مهامهم الخاصة"(4).

وقد مكنت تقارير اليزك القائد صلاح الدين الأيوبي من الإيقاع بالفرنجة في أكثر من مرة، ففي مستهل شعبان سنة (587هـ/1191م)، أفشل تقرير لليزك تحركات القوات عبر الساحل باتجاه

([1]) أدي شير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص: 160؛ حسين، الجيش الأيوبي، ص: 177.

(2) أبو شامة، الروضتين (274/4)؛ حسين، الجيش الأيوبي، ص: 177.

(3) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 177-178.

(4) ابن شداد، النوادر، ص: 221-222.

عسقلان، حيث أمر صلاح الدين على ضوء ذلك التقرير بملاحقة الحشود ومنعها من تحقيق أهدافها(1).

ومن المهمات التي أوكلت إلى اليزك تفقد أحوال المدن التي كان يحتلها الفرنجة لا سيما بيت المقدس فبعد تحريرها عام (583هـ/ 1187م) من الفرنجة إعادة احتلالها من جديد، فما كان من صلاح الدين إلى أن أرسل أخاه العادل في رمضان من عام (587هـ/ 1191م) على رأس يزك للاطلاع على قدرات المدينة الدفاعية، كما أرسل بعدها الأسير عز الدين جورديك، وجمال الدين فرج و غيرهما بالمسير ليكونوا قريبين من يافا في صورة يزك ليستطلعوا الأخبار(2).

ومنذ ذلك الحين أصبح اليزك يكلف بمهام قتالية بعد أنكان يُحظر عليه ذلك إلا في حالات الضرورة، وكاناليزك في إحدى مواجهاته مع الفرنجة أن يُلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الأسد بعد أن أصابته طعنة، وقد حال دون اعتقاله أحد المقاتلين الفرنجة ففداه بنفسه، وشغل طاعنه بما عليه من حسن لبسه، فاشتغل به وأسره، وأفلت اللعين واختفى أثره وقتل وأُسر من خيالته عدد ليس بقليل، وهرب الباقون مهزومين عائدين إلى حصونهم(3). كما قام اليزك بحماية الجيش الأيوبي من أي هجوم مباغت قد يقوم به الفرنجة، كما حصل عند أنطاكية.

إن حجم المسئوليات التي أُنيطت باليزك لتدل على حجم الثقة الكبيرة في أعماله وا ٍنجازاته ولم يأتي ذلك إلا عبر التخطيط العبقري والعمل المتفاني، الذي جعل وحدة اليزك من الوحدات الطلائعية في الجيش الأيوبي.

لقد كانت تضم وحدة اليزك خيرة جنود الجيش الأيوبي وأشجعهم، وكان حجم القوة وعددها يتوقف على طبيعة المهمة العسكرية المكلف بها.

وهكذا فقد تطور عمل ومهمات اليزك بتطور أساليب الصراع مع الفرنجة، فقد تحول اليزك من وحدة استطلاع خاصة تكلف بمهام جمع المعلومات عن العدو، مثلها مثل أي عمل من أعمال البريد والتجسس، إلى تنظيم حربي نشط له أهدافه في الدفاع عن قواعد الجيش الأيوبي أو المدن الإسلامية، أو الهجوم المباغت على معسكرات العدو وكذلك نصب الكمائنكما اسلفنا سابقاً (4).

ومن المعارك والأحداث التي قام بها اليزك ما يعرف بوقعة اليزك مع الفرنج: "لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكاً في مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور وعزموا على حصار صيدا،

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 223.

(2) أبو شامة، الروضتين (203/2)

(3) المصدر نفسه، ص: 190- 192.

(4) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 180.

فسار صلاح الدين في جريدة([1]) من أشجع أصحابه سوى من جعلهم على الشقيف، فوصل إليهم وقد فات الأمر، وذلك أن الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد، وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل للمسلمين أيضاً جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس، فحمل وحده على صف الفرنج، فاختلط بهم وضربهم بسيفه يميناً وشمالاً، فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله، ثم إن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا، فعادوا إلى مكانهم"(2).

كما كان نقل اليزك المعلومات عن الأعداء إلى السلطان، " فقد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك من قواه وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين، ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين"(3).

وهكذا كان اليزك " كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج، ويعظمون الأمر عليه"4).

رابعاً : وحدة الكمائن([5]).

عاش للمسلمون فترة صراع واستنزاف طويلة في زمن الحروب ، ونظراً لطبيعة الصراع المتداخل بين المسلمين و الفرنجة، حيث كانت المواجهة عادة ما تحدث في مناطق متداخلة بين الطرفين، فكانت توجد قلعة للمسلمين وبجوارها أخرى للصليبين، وهكذا.

إن طبيعة هذا الصراع، وطول مدته، وتعقيداته المختلفة، ألزمت المسلمين في العهدين الزنكي والأيوبي استخدام ما يعرف حديثاً بحرب العصابات المنظمة، أو ما يطلق عليه في الجيوش الحديثة وحدة القوات الخاصة.

([1]) **الجريدة**: الخيل التي لا يخالطها راجل ولا ثقل. واشتقاقها من " تجرد ": إذا تكشف، وأظهر الأمر الذي كان يكتمه. قال: الجَرِيدةٌ من خَيْلٍ لجَماعة جُرِّدَتْ من سائِرها لِوَجْهه. لسان العرب (3/ 118).

(2) ابن الأثير، الكامل (181/10)

(3) أبو شامة، الروضتين (4/ 269)

(4) ابن الأثير، المصدر السابق (10/ 75)

([5]) **الكمائن**: الكمين: الشَّيْء كامِن وَمِنْه سمي الكَمين فِي الْحَرْب. وكل شَيْء استتر بِشَيْء فقد كمن فِيهِ كُموناً . فهم " جماعة من الجنود يستخفون في مكان يظن أنه لا يفطن لهم فيه ليضربوا العدو عند مروره بهم " معجم لغة الفقهاء (ص: 385) انظر: الخوارزمي، مفيد العلوم، ص519. وهي خطة عسكرية تتوفى ضرب العدو في وقت أو في مكان لا يتوقعه، بحيث يتوارى الجنود عن الأنظار لمباغتة العدو، وقد كانت الكمائن صورة شائعة في الصراع الإسلامي الصليبي، فقلما تخلو منها معركة، وقد تطورت أساليب استخدامه وأصبح له مجموعة من الضوابط يجب أن تراعى عند إعداده، ومن أهمها: التدقيق في اختيار الجنود والمشاركين في الكمين؛ فيختار من الجنود من كان بارعاً في ركوب الخيل، مدرباً على فنون القتال خير تدريب، وعلى دراية تامة بالدروب والمسالك في منطقة القتال، وأن تكون الخيول مُنتقاه من أفضل الخيول وأسبقها، وأثبتا حوافر وأن تكون من جنسٍ واحد، إما ذكوراً أو إناثاً .و أن تكون الأسلحة محفوظة بحرص في حقائب وأوعية جلدية، حتى لا تحدث صليلاً أو جلبة.أما مكان الكمين فيجب أن يراعى أن يكون صالحاً للاستتار، ويستطيع الجنود الإقامة فيه لفترة طويلة إذا دعت الحاجة لذلك، وأن تتوفر فيه لوازم الإقامة، من ماء وكلأ للدواب،إضافة إلى ضرورة تحديد الجنود الذين سيبدأون بتنفيذ الكمين، بحيث يكون صادقاً وأميناً . (الأوسي الأنصاري، تفريج الكروب، ص: 71– 80؛ ابن الأثير، الكامل (8/446-447- 496-497)

و يعتمد أسلوب الكمائن بشكل أساسي على " وضع فئة من الجند في مكان مستتر لاقتناص غفلة الأعداء، ومهاجمتهم لإلحاق أكبر قدر من الخسائر بهم، وهذا الأسلوب يستخدم لاستخراج القوة المعادية وبالذات عند مهاجمة المدن إذ تتوجه مجموعات من الجيش ذات عدد قليل نسبياً فتهاجم المدينة، وعندما يرى المدافعون قلة عدد المهاجمين يغريهم ذلك بتتبعهم للقضاء عليهم، فيخرجون من مدينتهم، ويلاحقون المهاجمين، وهنا يظهر الكمناء من مكامنهم فيطبقون عليهم ويشتتون شملهم(1).

والكمين: هو إرسال جريدة، أو سرية([2]) من المحاربين الفرسان إلى جهات العدو ومباغتته، والإيقاع به في مناوشات محددة لا تصل إلى حد القتال الواسع النطاق أي أن العملية كانت تبدأ في السر، يقول الطوسي(3): " من أعظم المكائد في الحروب الكمين، ولا يحصى كثرة كم من عسكر استبيحت بيضته وقل عربه بالكمناء، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع وحمي الذمار، حتى يلتفت فيرى وراءه بنداً منشوراً ويسمع صوت الطبل، فحينئذ يكون همه خلاص نفسه ولتكن همتك وراء ذلك وعليه مدار الحروب، وعليك بانتخاب الشجعان واختيار الأبطال فاصطنع ذوي البسالة والإقدام والجراءة، ولا عليك أن لا يكثروا وبعيد عليك أن يكسروا، فهم في الجيش وا ٍن كالإنفحة في اللبن".

وهو " من أهمها يعتني به "(4) أثر لما في القلوب رعباً و في الأعضاء ضعفا و يجفي الوقل في الأيدي و يمنع من مقاتل على خصمه إلا ً إذا آمن من ورائه و لو من رجل و احد و لا تحصى كثرة العساكر المهزومة بالكمائن الفارسية و الإسلام"(5).

ولهذا كان ينبغي أن تتوفر في رجل الكمين من العيون، مواصفات خاصة حتى يستطيع أن يقوم بمهمته على أكمل وجه(6).

فيجب " أن يكونوا أشجع فرسان العسكر وأدربهم بالحرب، وأعرضهم بالتجارب، فإنهم ينفردون عن العسكر، ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم من أهل العسكر لبعدهم عنهم، ويكونوا عارفين بأمور الحروب عالمين بأحوال الأماكن الصالحة للاختفاء، ليتحقق الغرض الذي من أجله أُرسل الكمين"(7).

---

(1) الأزدي، جمهرة اللغة (725/2).

(2) السرية: الطائفة من الجيش تبلغ الدلالة على العدو و أميرها الذي يأمن والسرية خفية خروجها لئلا ينتشر الخبر به وتكتب به العيون فتخرج ليلا فيقال سرت ليلا و هي فعيلة بمعنى فاعلة. الدينوري، غريب الحديث (1/ 227)؛ الأزدي، جمهرة اللغة (725/2).

(3) الفهري، سراج الملوك، ص: 175.

(4) ابن الأزرق، بدائع السلك (1/ 164)

(5) المصدر نفسه. وينظر: الأبشيهي، المستطرف، ص: 225.

(6) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 189.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب (71/2)

و " أن يكون مقداماً جريئاً في الأهوال، بحوحة بصوته، متيقظاً ليس بنؤم، ولا عند السهر بخوار، ولاليلابقلباً، ولا بالكليل طرفاً، سموعاً لوقع الجرس وا ٍن كان خفيفاً، نهوضاً عند وقت المنادة والشدة... الخ "(1).

أما مواصفات الجياد المستخدمة في الكمين، والتي تجلعها صالحة للالتحاق بوحدة الكمين ما ذكره الأوسي بقوله: " وأن لا يكون فيها من الخلق ما يستدل به على الكمين مثل الصهيل ونحوه، وينبغي أن تكون الخول في الكمين كلها ذكوراً أو كلها إناثاً، فإن اجتماع ذكور الخيل مع إناثه يثير جلبة تنبه الأعداء فيؤدي ذلك إلى العلم بالكمين، وا ٍلحاق الضرر بجميع العسكر"(2).

ومن المواصفات الأخرى التي يجب أن تتوفر في الجياد، أن تكون ثابتة الحوافر، سالمة الظهور، لا تتحرك بكثرة أي لا تكون حرناً (3).

أما عن مواصفات الكمين فيجب "أن يكونالموضع خفياً مستتراً، وأن يكون مما يحتمل الإقامة فيه، إذا دعت الحاجة إلى طول الإقامة، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاجه الكمين بحسب الإمكان "(4).

ولكن في الكمائن المرسلة يصعب توفر الصفات سالفة الذكر برغم توفر كل مواصفات فارس الكمين التي كانت متوفرة في جماعات البدو من العرب الذين شكلوا احتياطاً جيداً في تزويد جيش صلاح الدين بالقوات الضرورية في أوقات الحرج لشن الغارات على العدو، وقد استفاد الجيش الأيوبي فعلاً من هذه الجماعات في أكثر من مناسبة، وقد ساعدهم على ذلك سرعتهم وخفة حركتهم وقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف أمام العدو، لجره إلى مكان الكمين، ومن ثم الاندفاع نحوه، والإيقاع به، وتحقيق الانتصار(5).

يجب الإشارة هنا إلى أن المصادر التاريخية لم تهتم بأمر الكمائن، إلا في المرحلة الثانية من العهد الأيوبي، التي بدت وكأن انتصارات المسلمين بقيادة صلاح الدين قد وصلت إلى نهايتها، وغدا خط انكسار الجانب الإسلامي واضحاً، بدءاً من تراجعهم أمام أسوار مدينة صور، وحصار الفرنجة لعكا ووصول الحملة الثالثة، بقيادة ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا،

(1) نجم الدين الأحدب بن عيسى بن إسماعيل الحنفى الرماح، نهاية السؤال والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية، مخطوطة، ص:191، نقلاً عن سعداوي، التاريخ الحربي، ص: 222، نقلاً عن محسن حسين، ص:189 – 190.

(2) الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 71. (الأوسي الأنصاري، عمر بن إبراهيم المتوفي في أوائل القرن التاسع الهجري/ أول القرن الخامس عشر الميلادي)

(3) الزبيدي، تاج العروس، ص: 172.

(4) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 190.

(5) ابن شداد، النوادر، ص: 108.

مروراً بسقوط عكا وهزيمة المسلمين في (أرسوف) ومحاولة الفرنجة احتلال بيت المقدس مجدداً، وانتهاءً بمعاهدة الرملة(1).

فبعد تحريره لبيت المقدس بعامين، ونظراً لكثرة التحرشات بالمسلمين، ومحاولتهم إعادة احتلال بيت المقدس، واستدعاء الحملات الجديدة، أدرك صلاح الدين أنه يتوجب عليه استنزاف القوى ، وأنه يتوجب عليه التحرش بهم حتى يشعرهم بالخوف، وأن لا يمكنهم من الخلود إلى الراحة والاستعداد لمواجهته في الوقت الذي يحددونه، لذلك رأى أن أفضل السبل لتحقيق هذا الهدف هو نصب الكمائن إضافة إلى أساليب أخرى عمد إلى تنفيذها، وبدأ صلاح الدين أعمال الكمين بحصار الفرنجة المحاصرين لعكا من أجل التخفيف عن أهلها المحاصرين، وكذلك قض مضاجع الإمارات الأخرى في بلاد الشام، ولعل أبرز حوادث الكمين ما وقع في جمادي الآخرة سنة (585هـ/1190م)، ففي السادس من هذا الشهر وصل إلى مسامع صلاح الدين خبر مفاده بأن جماعة من أفراد العدو يتبطئون ويخرجون من صور ليصلوا إلى جبل تبنين([2])لجمع الحشيش والحطب، فرأى أن يصنع كميناً كبيراً من العيون الشجعان، يتوزعون في الأودية والشعاب، على أن يكون عدد الرجل في الكمين كافياً للقوة التي خرجت، وللقوة الاحتياطية التي جاءت في أعقابها لحمايتها(3).

أنفذ صلاح الدين إلى عسكر تبنين، وطلب منهم أن يخرج من بين رجال الكمين نفر يسير، وذلك لإيهام العدوأنهم نفرٌ قليل، على أن يبدأوا بالتحرش بالجماعة فوراً، وحين ترد عليهم هذه الجماعة، يتظاهرون بالفرار، ويجرون خلفهالجماعة ، كما لم يكتفِ صلاح الدين بنصب الكمين من جهة واحدة، بل أرسل إلى عسكر عكا وطلب منهم أن يخرجوا وراء عسكر العدو حتى إذا تحرك هؤلاء في نصرة أصحابهم قصدوا خيامهم، وركب هو وجماعة من رجاله وساروا باتجاه المكان الذي سيلجأ إليه رجال الكمين المنهزمين، ورتب صلاح الدين العسكر ثمانية أطلاب، واختار من كل طلب عشرون فارساً من الشجعان، فكون سرية، وأمرهم أن يبرزوا للعدو بحسب الخطة المرسومة حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيدهم إلى أن يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الجماعة عسكر كثير يتقدمهم ملك، ويبدوا أن خبر الكمين قد وصلهم، فاحتاطوا لذلك، وجهزوا أنفسهم للقتال، ثم جرى بين الطرفين قتال حقيقي لأن أفراد السرية الإسلامية انفوا عن الانهزام، ولو كأسلوب لخداع العدو، وحملتهم الحمية على مخالفة أوامر السلطان، ومقاتلتهم للعدو بأعداده الكثيرة وهم في قلة من العدد، حيث اتصلت الحرب بينهم إلى نهاية ذلك اليوم، ولم يرجع منهم أحد إلى المعسكر ليخبرهم بما جرى،

---

(1) حسين، الجيش الأيوبي، ص: 191.

([2]) **تبنين:** بلدة في جبال بني عامر المطلة على نانياس بين دمشق وصور. ياقوت الحموي، معجم البلدان (14/2)

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 239، 300.

وهزم الفرنج(1)، " وعادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقاتلة عظيمة من الجانبين، وكان القتلى من الفرنج زهاء عشرة أنفس، ومن المسلمين اثنان من اليزك وأربعة من العرب"(2).

إن الظروف التي مر بها الجيش الأيوبي في تلك الفترة، وصلاحية أرض الشام، ولا سيما فلسطين لنصب الكمائن وذلك لوجود الأحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين،

" فالمناطق الجبلية تعتبر مناطق مناسبة للمباغتة ونصب الكمائن؛ وذلك بسبب قلة امتداد الرؤية التي تحددها الحواف الجبلية(3).

وقد ذكر التطيلي(4) أنه رأى الترك خلال رحلته ينصبون " الكمين في مسالك الجبال ومضائق الشعاب".

تلك الطبيعة الجغرافية حتمت على الجيش الأيوبي تنظيم مثل هذه العمليات العسكرية المحدودة الأثر، والتي كانت الغاية منها كما أسلفنا هي إحراج العدو وجعله لا يشعر بالأمان.

إن الحادثة السابقة تبين لنا الدور البارز والمميز لجماعات العيون والجواسيس من البدو وأمراء العرب في عمليات الكمين في العهد الأيوبي، وهذا ما يؤكده ابن شداد في ذكره لبطولاتهم المختلفة بقوله: "خرج العدو للاحتشاش من طرف النهر، فأكمن السلطان لهم جماعة من العرب لخفتهم، وهجموا علىالفرقة على حين غرة، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وأسروا جماعة، وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، فخلع عليهم وأحسن إليهم"(5).

وفي كمين آخر نصب في بطون الوديان، اشترك فيه جمع من العرب مرة أخرى، وكان على رأس الكمين رجال من الكمين بعض أمراء صلاح الدين الذين قتل اثنان منهم أثناء المناوشة مع العدو، وقد نصب هذا الكمين للإيقاع بالفرنجة الذين خرجوا كعادتهم للاحتشاش والاحتطاب، وبدأت خطة الكمين بإطلاق بعض رجل الكمين صوتاً في طرف من الوادي من أجل إثارة الفرنجة، الذين تهيأوا لمعرفة مصدر الصوت، عندها خرج العرب وتظاهروا بالهزيمة نحو جهة الكمين، فطاردهم العدو، حتى وصلوا إلى الكمين، فخرج المكمنون وصاحوا بهم صيحة رجلٍ واحد، فانهزم الفرنجة بين أيدهم نحو خيامهم، واتصل الخبر بجماعتهم، فخرجوا لنجدتهم والتحم الطرفان في قتال نتج عنه مصرع عدد من مقاتلي الطائفتين، وجرح وأُسر جمع من العدو وأخذ منهم عدد من خيولهم(6).

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 101.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) بنيامين التطيلي، رحلة، ص: 337.

(5) بنيامين التطيلي، رحلة، ص: 337؛ ابن واصل، مفرج الكروب (294/2)

(6) ابن شداد، النوادر، ص: 200.

يقول ابن شداد في نوادره السلطانية: لقد كان سبب انفصال القتال أن السلطان أنفذ جماعة من الأمراء على رأسهم سيف لدين يازكج، لحماية الكمين قائلاً لهم، إذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا، ثم أخذتهم الحمية فاشتبكوا مع الفرنجة رغم ما رأوه من كثرة عددهم، فولى الفرنجة الأدبار نحو خيامهم، والسيف يعملفي قضاهم، حتى دخلوا الخيام، وقد خرج السلطان بنفسه ليطلع على نتائج ما يجر ي، ومعه ابن شداد، ثم عاد رجال الكمين والبشائر تتواصل وقد قتلوا ستين صليبياً، وكان وقع هذا الكمين الناجح مؤلماً على الفرنجة، لدرجة جعلت الملك ريتشارد قلب الأسد، بعث إلى الملك العادل يعاتبه على ما حدث ويطلب الاجتماع به(1).

لم ينفرد السلطان صلاح الدين بتدبير أمر الكمائن، بل إن أتباعه من أمراء الأقاليم التابعة له اشتركوا في نصب الكمائن كذلك، كما فعل أمراء حلب في رمضان سنة (586هـ/ 1190م)، حين نصبوا كميناً للصليبين الذين يجاورونهم في إمارة أنطاكية، والذين اعتدوا على حلب أثناء غياب صاحبها الملك الظاهر عنها، وذهابه إلى عكا ليكون مع قوات والده(2).

ومن أشهر الكمائن أن نفذها الجيش الأيوبي والتي جعلت المؤرخين يطلقون عليها اسم "وقعة الكمين" ففي " الثاني والعشرين من شوال سنة (586هـ/1190م) رأى السلطان أن يعد للعدو كميناً، وقوى عزمه على ذلك، فأخرج جمعاً من كماة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه، وانتخبهم من بين عدد كبير من المقاتلين، وأمرهم أن يسيروا في الليل، لكي لا يراهم أو يحس بهم العدو، ويكمنوا في سفح تل يقع شمالي عكا المحاصرة، بعيداً عن عسكر العدو، وطلب من نفر منهم أن يخرجوا ويتحرشوا بالقوات التي تعسكر هناك، ويناوشوهم بالنشاب، لتحريك حميتهم فنفذوا ما طلب منهم، عندها خرج من بين الفرنجة مائتي فارس(3)، شاكين في السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة، وقصدوهم، وطاردوهم، ثم داخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم، فانهزموا بين أيديهم، وهم يقاتلون وينتقلون، حتى أتوا الكمين، عندها خر ج عليهم رجال الكمين المسلحون، وثار حماس الطرفين، وصاح المسلمون فيهم صيحة الرجل الواحد، وهجموا عليهم هجوم الأسد على فريسته، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الفرنجةإلا أن رجال الكمين لحقوا بهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف، حتى أفنوا منهم عدداً كبير اً، وأعلى الباقون استسلامهم، فأسروهم وأخذوا خيلهم وعُددهم، وأرسل المنتصرون نبأ انتصارهم إلى المعسكر الصلاحي(4).

يذكرأن عمل الكمائن استمر طول فترة الاحتراب التي انتهت بشكلٍ مؤقت بعد توقيع صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد.

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 200.

(2) ابن شداد، النوادر، ص: 143.

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 151؛ أبو شامة، الروضتين (180/2).

(4) أبو شامة، الروضتين (180/2).

خامساً : وحدة التحقيق.

تختص هذه الوحدة بالتحقيق مع كل من له علاقة بعمل العيون والجواسيس، ولكنها كانت تركز في تحقيقاتها مع فئتين هامتين هما، أسرى الحرب والمستأمنين، وفيما يلي التوضيح:

1. أسرى الحرب:

تخصصت هذه الوحدة بالتحقيق مع الأسرى واستخلاص ما يمكن استخلاصه منهم من معلومات عسكرية وسياسية واقتصادية، ولأهمية ما يمكن الحصول عليه من معلومات من هذه العناصر، كان صلاح الدين الأيوبي في كثير من الحالات يشرف بنفسه على استجواب بعضهم وهذا ما أكده كلٌ من ابن شداد(1) والعماد الأصفهاني(2).

ومن الطبيعي أن يكون اهتمام صلاح الدين بالمعلومات التي يُقدمها الأسرى نظراً لقيمتها العسكرية التي سيبنى عليها قرارات مصيرية ومن المعلومات التي استطاع رجال العيون الأيوبية الحصول عليها من الأسرى ما أبلغوا به القيادة الأيوبية في الثاني والعشرين من رمضان سنة (587هـ/ 1191م) بأن الملك ريتشارد قلب الأسد عاد إلى مدينة عكا، وأنه مريض، وأن أهل عكا في حالة معنوية منهارة بسبب فقرهم وقلة المؤن عندهم(3).

ومن خلال استجواب الأسرى استطاع رجال العيون معرفة حجم الأسطول الصقلي الذي هاجم الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة (569هـ/ 1174م)، حيث يقول العماد الأصفهاني: "أما الخيل على ما حققته أخبار الأسرى على الإنفراد ألف وخمسمائة رأس، وكانت عدة رجالهم في كل شيء مائة وخمسين رجلاً فيكون ثلاثين ألف على مائتي شيني"(4).

كما يورد العماد عن التحقيق مع الأسرى من قبل اليزك فيقول: "كانت نوبة اليزك لعز الدين إبراهيم ابن المقدم في الساقة وكانت الفرنج قد أنست بانقضاء الحرب، فخرج منها جماعة مسترسلين، وتقدموا على اليزكية مشرفين فبصر بهم ابن المقدم فعبر إليهم من ورائهم هو ومن معه النهر وهم لم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففاجئهم وضجعهم وفرغ من شغلهم قبل أن يدركهم الصريخ، وسلبهم وغنمهم ثم نهض الفرنج إليه وحملوا عليه، وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مبيدة جلبت لنا غنيمة وعليهم هزيمة، وأُحضر الأسرى عند السلطان وعبر شعراء أرسوف ونزل على قرية تُعرف بدير الراهب، وطلب ملك الإنكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة، فاجتمعا فأشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه قد طال بيننا القتال، ونحن جئنا في نصرة إفرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه"(5).

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 250.

(2) البنداري، سنا البرق (180/1)

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 250.

(4) البنداري، سنا البرق الشامي، ص: 77 . 78.

(5) أبو شامة، الروضتين (274/4)

كما كانت العيون الأيوبية تستفيد من الأسرى المسلمين الذين فروا من أيدي الفرنجة أو الذين تم فداؤهم، فعلى سبيل المثال: أخبر أحد الأسرى المسلمين الذين فروا من معسكر الاعتقال الفرنجة صلاح الدين بأن الفرنجة ينوون غزو الرملة(1).

2. المستأمنين:

تختص هذه الوحدة باستخلاص المعلومات من العناصر التي لجأت إلى الدولة الأيوبية لظروف وأسباب مختلفة، وطلبت الأمان، حيث كانت تمثل معيناً لا ينضب من المعلومات الأمنية للدولة الأيوبية، فكانت العيون الأيوبية عن طريق هذه العناصر، ترصد أدق التفاصيل عن تشكيلات وخطط الجيوش ، فضلاً عن مستوى العلاقات بين قادة تلك الجيوش، والتي كانت تستثمر بشكل جيد من قبل القيادة الأيوبية لتحقيق الانتصارات في ميادين القتال.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن العيون الأيوبية تمكنت من استقطاب العديد من العناصر العربية النصرانية، حيث قامت بدور مهم في حماية الأمن الداخلي، وكشف العديد من المؤامرات التي دبرها الفرنجة بالتعاون مع بعض العناصر المحلية المناوئة للدولة الأيوبية([2]).

كانت حرب المعلومات بين المسلمين و الفرنجة، وكانت هي المقدمة لأي مواجهة عسكرية لذلك لم يترك صلاح الدين الأيوبي باباً فيه مصلحة للحرب واستهداف للأعداء، إلا واستغله ما لم يتعارض مع الشرع، ومن الأدوات التي استخدمها صلاح الدين الأيوبي في المواجهة مع الفرنجة المستأمنين حيث استخدمهم في جمع المعلومات، وفي مهام قتالية، ومما يرويه ابن شداد في نوادره السلطانية فيقول "وكان قد استأمنمن الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجو ع إلينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر في براكيس وبطس إلى العدو، ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً وهو المركب الصغير، فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو، وهي قاصدة إلى عسكرهم وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فوقع عليها البركوس وابلوهم حتى آخذوهم واكتسبوا منهم مالاً عظيماً وأسروهم وأحضروهم بين يدي السلطان وذلك في ثالث عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضراً ذلك المجلس وكان جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من فضة، فأعطاهم السلطان الجميع، ولم يأخذ منهم شيئاً ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم"(3).

كما يشير ابن شداد إلى أن صلاح الدين كان يحصل على خطط العدو العسكرية من المستأمنين، ويشرح ذلك من خلال قصة وصول الكندهري، فيقول: "وهذا المذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل في البحر في مراكب عدة ومعه من الأموال والذخائر والمسيرة والأسلحة والرجال عدد عظيم،

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 196 . 197.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (245/1).

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 67.

فقوي بوصوله عزمهم، واشتد أزرهم وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الإسلامي المنصور ليلاً، وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس، فجمع السلطان الأمراء وأرباب الرأي واستشارهم فيما يفعل، فكان آخر الرأي أنهم يوسعون الحلقة ويتأخرون عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبتعد عن خيمه، فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله في قلبه، فرحل إلى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك في السابع والعشرين من جمادي الآخرى، وترك نقية من العسكر في تلك المنزلة على أجنحة الطيور وأيدي السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وندخل سرقة من العدو، هذا وأخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض، وأنهم قد اجتمعوا بأنطاكية وأنهم قد بقوا رجالة وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم"(1).

لقد استطاع صلاح الدين أن يحصل من المستأمنين والجواسيس على معلومات هامة عن أنواع الأسلحة عند العدو، الأمر الذي مكنه من معرفة قوة وعتاد عدوه مما كان له أكبر الأثر في معرفة نقاط ضعفهم ويقول ابن شداد في ذلك، "وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام، القسم الأول الملك العتيق جفري وجماعة الساحلية معه في المقدمة، والأنكتار والفرنسيس معه في الوسط، وأولاده الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضاً كالمنارة العظيمة، هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين، وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظاً شديداً، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيراً رقيقاً ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم، فانتظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع، وكانت منزلتهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها(2).

وتشير المصادر التاريخية على أن فرقة المستأمنين قدمت تقريراً لصلاح الدين وصفت فيه الجيش الإفرنجي، حيث ورد في الروضتين في أخبار الدولتي النورية والصلاحية القول، "وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والراجل، وعن يمينهم البحر وعن يسارهم الرمل، وكانت الرجالة حولهم كالسور، وعليهم الكبورة الثخنية والزرديات السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون، وهم يرمون الزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم، قال القاضي ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهو يسير على هنية من

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 169.161.

(2) ابن شداد، النوادر، ص: 81.

غير انزعاج، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح، قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم العمال(1).

سادساً : وحدة الترجمة.

حتم تنوع لغات الجيوش على العيون الأيوبية استحداث وحدة للترجمة للمساعدة في الترجمة عند استجواب الأسرى، أو استقبال رسائل العملاء المغروسين في داخل الصف الفرنجة، وهذا ما يمكن ملاحظته بشكل جلي من خلال مراسلات صلاح الدين مع (سيبيل) أميرة أنطاكية أو من خلال استجواب الأسرى الذين كانت تتم ترجمة أقوالهم بشكل فوري.

ويجب على المترجم أن تكون لديه القدرة على " فهم الخطاب وتفهيمه، وسرعة إدراك ما يلقى إليه من ذلك، وتأدية ما يقصد تأديته منه، مع ما يحصل له من الحظوة والتقريب بالموافقة في اللسان؛ فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه"(2)، و" لابد له من معرفة الأوضاع التي طلع عليها كُتَّاب الجيش في كتابة الحلي من الاختصار ما فهذه أمور كليةٌ لا بد لمباشر الجيش من معرفتها وإتقانها، ويتجنب مباشر الجيش أن يرقم بقلمه عدة جيش تصريحاً لما يتعين من إخفاء عدته وذكر تكثيره، فإنه إن وضع ذلك بقلمه لا يأمن من الإطلاع عليه فيشيع ويذيع، وقد يتصل بالعدد والمعلن والمناوئ فيترتب عليه من الفساد ما يترتب وهذا بابٌ يجب على كاتب الجيش الاحتفال به، والاحتراز من الوقوع فيه وكتمانه عن سائر الناس ما وإن دعته الضرورة إلى تسطير ذلك خشية أن يسأله ولي الأمر عن شيء منه فليكن وضعه لذلك رمزاً خفياً يصطلح عليه مع نفسه لا يعرفه إلا هو، أو من له دربه بمباشرة الجيش"(3).

لقد تفنن المسلمون في إخفاء أسرارهم، لكي لا يطلع عليها العدو، لا سيما أثناء حصار عكا، حتى أنهم استعملوا رموزاً خاصة، أو ما تسمى بالشفرات، تدل على أمورٍ متفق عليها مقدماً، فقد ذكر العماد أن رجال البريد كانوا يحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور"(4).

وتكون الحاجة ماسة إلى المترجمين في الجهاز الاستخباري في حال " أُسر الأسير واستأمن المستأمن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينتقل واحد عن الآخر، ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثاني "(5).

---

(1) أبو شامة، الروضين (271/4)

(2) القلقشندي، صبح الأعشى (1/ 203)

(3) النويري، نهاية (158/8-159)

(4) الأصفهاني، الفتح، ص: 410؛ أبو شامة، الروضتين (118/4)

(5) أبو شامة، الروضتين (251/4)

وقد وردت العديد من الإشارات حول إحضار الأسرى الفرنج بين يدي صلاح الدين(1)، فكان يحقق معهم ويحاورهم، ويكون الوسيط بينهم الترجمان فيسألهم عن "عن أحوال القوم"(2).

سابعاً : وحدة التعمية "التشيفر" (3).

نظراً لأهمية المعلومات المتداولة بين العيون الأيوبية، وخطورة حصول الأعداء عليها كان لا بد من إيجاد نظام أمني جيد لحماية هذه المعلومات والوثائق، خصوصاً وأن جزءاً كبيراً من هذه المعلومات يتم تداوله عبر الرسائل المتبادلة بين القيادة والأفراد، لذلك وجد في العيون الأيوبية وحدة تشفير المعلومات والرسائل، أو ما يسمى بالتعمية عند المسلمين، لتقوم بتشفير كل الرسائل المتبادلة بين القيادة وعناصرها في مسرح العمليات، فكان "رجال البريد يحملون كتباً وطيوراً، ويعودون بكتب وطيور، (ويكتبون) على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور"(4).

وعلى العامل في التشفير أن: "يتجنب أن يرقم بقلمه عدة الجيش تصريحاً لما يتعين من إخفاء عدته، فإنه إن وضع ذلك بقلمه لا يأمن من الإطلاع عليه فيشيع ويذيع، وقد يتصل بالعدو والمعاند والمناوئ فيترتب عليه من الفساد ما يترتب، وهذا باب يجب على كاتب الجيش الاحتفال به، وكتمانه عند سائر الناس، وإن دعته الضرورة إلى تسطير ذلك خشية أن يناله من ولي الأمر شيء منه، فليكن وصفه لذلك رمزياً خفياً يصطلح عليه مع نفسه لا يعرفه إلا هو"(5).

وهذا تأكيد على الحرص على كتم المعلومات المتعلقة بالجيش، و من الأمور التي تعد من أولى أوليات القيادات الإسلامية على مر التاريخ، حيث ظهرت أدبيات التشفير للوصول إلى الأسلوب الأمثل لحفظ الأسرار المتعلقة بإعداد وعدد الجيش وأسماء قياداته وأفراده.

وقد وضع الأعشى(6) الأسس التي يجب أن يسير عليها المشتغل بالتشفير، فقال "اعلم أنّ التعمية بالنّسبة إلى كلّ واحد من الناس إنّما يجهله من الخطوط، فيعمّى على العربيّ في اللغة العربيّة بالخطوط العربيّة، كالرّوميّة والعبرانيّة ونحوهما، إذا كانت حروف تلك اللغة توافق لغة العرب، أو

(1) أبو شامة، الروضتين (288/3، 390/4– 403)

(2) ابن شداد، النوادر، ص: 267.

(3) التعمية (أو الشفرة) تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص، و استخراج التعمية (أو كسر الشفرة) تحويل النص المعمى إلى نص واضح لمن لا يعرف مسبقا طريقة التعمية المستعملة . (محمد الطيان ومحمد مراياتي، مقاصد القصول، ص: 1349)

40) الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 410.

(5) النويري، نهاية الإرب (158/8 – 160)

(6) القلقشندي، صبح الأعشى (23/9–232) بتصرف.

بقلم مصطلح عليه على وفق حروف العربية، وكذلك يعمّى على غير العربيّ من الرّومي ونحوه ممن يجهل الخطّ العربيّ بالقلم العربيّ ، وعلى ذلك، ثم للناس في التعمية مذهبان:

المذهب الأوّل– أن يكتب بالأقلام القديمة الّتي ليست بمتداولة بين الناس مما لا يعرفه إلاّ الآحاد، إذا وافق ذلك القلم اللغة الّتي تريد (...)، المذهب الثاني– أن يصطلح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره وحروف يصوّرها بإبدال كل حرف معيّن بحرف آخر معيّن حيث وقع في القلم المعروف بالقمّي، وهو أنهم جعلوا مكان كلّ حرف من حروف العربية حرفا آخر من حروفها، ومنهم– من يعكس حروف الكلمة فيكتب محمد "دمحم" وعلي "يلع" .

ومنهم من يبدل الحرف الأوّل من الكلمة بثانيه مطلقا في سائر الكلام فيكتب محمد أخو علي "حمدم خا عويل" إلى غير ذلك من التمييزات.

ومنهم– من يبدل الحروف بأعدادها في الجمّل، فيكتب محمد أربعون، وثمانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعمية صفة محاسبة.

ومنهم– من يكتب عوض عدد الحرف حروفا وهو أبلغ في التعمية، فيكتب محمد "لي بو لي أجلأنّ اللام والياء بأربعين وهي عدد ما للميم الأولى، والباء والواو بثمانية وهي عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهي عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهي عدد ما للدال، فكأنه قال: م ح م د وا ن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد.

ومنهم–من يجعل لكلّ حرف اسم رجل أو غيره.

ومنهم– من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين على ترتيبها على حروف أبجد، فيجعل الألف للشّرطين، والباء للبطين، والجيم للثّريّا، وهكذا إلى آخرها، فيكون بطن الحوت للغين من ضظغ.

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذلك، أو صور الطير وغيره من الحيوانات، إلى غير ذلك من ضروب التّعامي الّتي لا يأخذها حصر وأكثر أهل هذا الفنّ على أن يرسم الحروف أشكالا يخترعها قلما له مقطّعة على ترتيب حروف المعجم. والطريق في ذلك أن يثبت حروف المعجم ثم يرتّب تحت كل واحد شكلا لا يماثل الآخر، فكلما جاءه في اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلط، ثم يفصل بين كلّ كلمتين، إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك، وأكثر المتقدّمين يجعلون الحرف المشدّد بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا صبح"

ثامناً : وحدة استقطاب ومراقبة الشخصيات القيادية لدى العدو.

تمثلت مهمة هذه الدائرة في استقطاب الشخصيات القيادية في المعسكر الفرنجة ونظراً لأهمية هذه الدائرة، وخطورة عملها، فقد كانت تتبع لصلاح الدين مباشرة، الذي استطاع بعد انتصاره في معركة حطين سنة (583هـ/ 1187م) من استقطاب العديد من الشخصيات الكبيرة إلى جانبه، لا بل وتحويلهم إلى جواسيس يمدونه بأثمن المعلومات عن الجيوش .

ومن أهم الشخصيات السياسية التي تم استقطابها، الأميرة (سيبيل) زوجة الأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، والتي كانت تنقل لصلاح الدين تحركات وأخبار الجيوش ، لذلك لم يبخل عليها صلاح الدين بالأموال والهدايا.(1)

ومن الخدمات الجليلة التي قدمتها هذه الأميرة لصلاح الدين، أنها كشفت له بعض أسرار الفرنجة ومواطن ضعفهم أثناء محاصرته لقلعة برزية في الساحل الشامي، الأمر الذي سهل عليه فتح هذه القلعة الحصينة التي استعصت عليه لمدة طويلة، إ كانت صاحبة القلعة أخت الأميرة (سيبيل)، والتي أسرتها القوات الأيوبية، إلا أن صلاح الدين أطلق سراحها وأرسلها معززة مكرمة إلى أنطاكية بصبحة زوجها وجماعة من أصحابها، وكان ذلك تقديراً للأميرة (سيبيل) وفي ذلك يقول ابن شداد: "ثم سير السلطان جريدة إلى قلعة برزية وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً، ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل، وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها في الرابع والعشرين من الشهر وفي بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترةللضرب ليلاً ونهاراً وفي السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الأخر بحيث لا يفتر عنها القتال أصلاً، وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفي نوبته وضرب الناس في القتال وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح في الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا ساعة حتى رقي الناس على الأسوار وهجموا القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا بالأمان وقد تمكنت الأيدي منهم فلم ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما فيها وأسر جميع من كان فيها وكان قد أوى إليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوماً عظيماً وعاد الناس إلى خيلمهم غانمين وعاد السلطان إلى الثقل فرحاً مسروراً وأحضر بين يديه صاحب القلعة وكان رجلاًكبيراً منهم وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالة له فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله"(2).

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 87.

(2) المصدر نفسه.

الفصل الثالث

صفات وواجبات و أساليب ووسائل عمل العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي

أولاً : صفات العيون.

يفترض في العيون أن تتوفر فيهم صفات خاصة، تؤهلهم لأداء المهام الصعبة، والخطرة، المكلفين بإنجازها، ومن أهم هذه الصفات:

1- اللياقة البدنية:

يجب أن تتوفر في العين اللياقة البدنية العالية، لأنه سيتعرض لظروف صعبة، سواء كانت تضاريسية، أو مناخية، أو معاشية، فقد وصف قائد سرية نخلة عبد الله بن جحش([1]) من قبل رسول الله ﷺ: ".. ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش.."([2]).

2- الشجاعة:

هي من الصفات التي يجب أن يتمتع بها العين، وهي دون التهور، تلك الصفة الذميمة، حيث يتوجب على العين أن يتمالك أعصابه في الحالات الحرجة، لاسيما إذا كانت المهمة تتطلب احتكاكاً مع العدو، أو الدخول في صفوفه وبين قواعده، فالشجاعة هي أهم سمات عمل العيون، وقد ضرب عيون رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في الشجاعة، لاسيما عيون المهمات الخاصة ([3]).

أما في العهد الزنكي والأيوبي فقد كان عيسى العوام أشهرهم على الإطلاق،فقد كُلفه صلاح الدين بالاتصال بالمحاربين المحاصرين في عكا، للاطلاع على أوضاعهم الصعبة، وكذلك لإرسال المال اللازم إليهم، فكان يتصل بهم بواسطة الحمام الزاجل والسباحين(4). فقد اعتاد هذا الرجل الدخول إلى عكا رغم الحصار البحري، ومعه توجيهات السلطان في كتب يشدها على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار مع كتب للعسكر، إلا أنه لم يستطيع الوصول فغرق في ساحل عكا، وعرفوا أن مكروهاً حدث له، حال دون إطلاق الطائر، وبعد عدة أيام عثروا على جثته وعلى وسطه قطع الذهب وشمع الكتب، فما رؤيا من أدلة الأمانة في حياته، وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل(5).

3-القدرة على التمثيل ولعب الأدوار المطلوبة، وا ٍقناع الآخرين بها:

إن هذه الصفة تتطلب امتلاك العين قدرات خاصة في الذكاء والقدرة على الإقناع للتغلب على شكوك الخصم، وتجيب على تساؤلاته بنجاح، ولا بد للعين أن يخفي شخصيته الحقيقية تحت قناع يقوم

([1]) **عبد الله بن جحش**ينتمي إلى بني أسد، وأمة أُميمة بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ، حليف لبني عبد شمس، أسلم قبل دخول الرسول ﷺ، دار الأرقم، وكان ممن هاجر إلى الحبشة، وقد استشهد في غزوة أحد. (ابن عبد البر، الاستيعاب 878/3).

([2])انظر نص الرواية كاملاً : أحمد بن حنبل، مسند (3/ 119).

([3]) المقريزي، إمتاع (1/ 136، 2/ 123)؛ الشامي، سبل الهدى (248/6)

(4) عيسى العوام غواص عربي مسلم حارب مع القائد صلاح الدين الأيوبي ضد صلاح الدين، وقصته الشهيرة وردت في حصار عكا. (ابن شداد، النوادر، ص: 135)

(5) ابن شداد، النوادر، ص: 206؛ أبو شامة، الروضتين (4/ 160)

على تغير الملامح، أو تغير في نبرات الصوت، والملابس، أو كلها مجتمعة، أو منفردة، وقد قدم عيون الرسول ﷺصوراً ناجحة في هذه الصفة ([1]).

4- الحذر من العدو:

هي من الصفات اللازمة للقائد، ولمن يدير الدولة حتى لا يقع فريسة للأعداء، لأن الأعداء لن يدخروا جهداً في الحصول على المعلومات بوسائل تجسسية متعددة، مثل السفراء، ومن الأمثلة البارزة في العهدين الزنكي والأيوبي ما اتصف به عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال : فكان لا يكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير إذنه، وا ٍذا أستأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجمتع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة(2).

5-معرفة وا ٍتقان لغة العدو:

هي صفة لازمة لعمل العين، وهي من أهم الصفات المطلوبة في جواسيس العصر الحديث، وقد أكد على هذه الصفة رسول الله ﷺ بقوله: "من تعلم لغة قومٍ أمن مكرهم"، وقد برز عيون النبي ﷺ من كان يعرف لغة القوم، الذين نفذت بين ربوعهم أهداف معينة (3). كما يجب الإشارة إلى ما تذكره المصادر التاريخية بأن الرسل الذين كان يرسلهم الرسول ﷺ إلى خارج الجزيرة العربية، كانوا يجيدون لغات البلاد المرسلين إليها ([4]).

ويذكر الواقدي بأن أبو عبيدة بن الجراح " كان أعظم جواسيسه من متنصرة العرب لأنهم كانوا يحسنون لسان الرومية"([5]).

وقد حرص صلاح الدين على تجنيد الرجال الذين يجيدون لغة العدو، ولا يشك بهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب سحنتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال العيون المسلمين. فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كبس العسكر الإسلامي ليلاً "، أو خبر المنجنيق الفرنجة الهائل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً، والذي أعدوه للهجوم على عكا(6).

---

(1) البخاري، صحيح، ص: 19.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب (209/2).

([3]) المصدر نفسه.

([4]) البرهاوي، العيون، ص: 86؛ مرسي، التربية الإسلامية، ص: 264.

([5])الو اقدي، فتوح الشام (1/ 248)

(6) ابن شداد، النوادر، ص: 134.

ونتيجة لتنوع للغات بين الجنود القادمين من أوروبا مع الحملات ، كان لابد من تعلم هذه اللغات، وهذا ما أدركه صلاح الدين، فأنشأ وحدة خاصة للمترجمين، ولتعلم لغات الأعداء (1).

6- سرعة البديهة:

حيث يتوجب على العين أن يكون سريع الملاحظة، وأن يمتلك القدرة على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب وفي اللحظات الحرجة ([2]).

حيث يروي ابن شداد أنه في إحدى المرات تم تكليف اليزك بمهمة الكمين على طريق يافا، وأوكلت المهمة إلى بدر الدين دلدرم، "كمن حول الطريق كميناً فيه جماعية جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة" وجرى بين الفريقين قتال مرير كانت فيه الغلبة لقوات اليزك الأيوبية، حيث قتل من الأعداء ثلاثون نفراً ، وأُسر آخرين(3).

7- القدرة على الإبداع من خلال معالجة المشاكل الثانوية، أثناء التنفيذ:

والتي تؤخذ بعين الاعتبار أثناء وضع الخطة، والناتجة في الأساس عن متغيرات طرأت على الميدان أثناء التنفيذ ([4]).

وقد برزت القدرة الإبداعية للمسلمين في قدرتهم على التغلب على التفوق الفرنجة العسكري، حيث كانوا يستخدمون الدبابات التي لا يعرفها المسلمون، وقد كان لهذه الدبابات دور مهم في تفوق الفرنجة الميداني على المسلمين، ولم تتغير هذه الحالة إلا عندما نجح المسلمون وبتوجيهات من صلاح الدين في إعداد مادة كيماوية أحرقت هذه الدبابات (5).

8- معرفة الطرق والمسالك:

حيثيتوجب على العين معرفة الطرق والمسالك التي سيسير فيها، وا ِلا فإنه سيكون عرضة للوقوع في أيدي الأعداء، لذلك أشارت المصادر التاريخية إلى وجود أدلاء في بعض العمليات، مما يدل على أن هذه الصفة كانت موجودة لدى العيون ([6]).

---

(1) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (1/ 203)

([2]) الواقدي، المغازي (2/ 498-490)

(3) النوادر، ص: 212.

([4]) الحميري، سيرة ابن هشام (4/ 206)

(5) ابن شداد، النوادر، ص: 49.

([6]) الواقدي، المغازي (3/ 985-987)؛ المقريزي، إمتاع (1/ 136، 123/2)؛ الشامي، سبل (6/ 248)

9- القدرة على القراءة والكتابة:

لهذه الصفة أهمية كبيرة، ذلك أن أهم أعمال العيون والجواسيس،استطلاع الأخبار وا إرسالها إلى القيادة، من خلال وسائل عدة، أهمها كتابة الرسائل؛ لذلك حرص المسلمون في العهدين الزنكي والأيوبي على تعليم العيون والجواسيس الكتابة ([1]).

ثانياً : واجبات العيون والجواسيس.

كثيرة هي الواجبات التي كان يكلف بها العيون والجواسيس، وكان جزء منها لم يكن مركزياً يتبع جهاز خاص وموحد، فقد مارس القادة والولاة متابعة عمل العيون، وأرسلو عيونهم حتى لمعرفة أخبار ولاتهم، إضافة إلى واجبات أخرى كثيرة سنحاول استعراضها بشيء من الإيجاز من أهمها:-

1- مراقبة أداء القادة العسكريين:

إن مراقبة أداء القادة في جبهات القتال، هو شيء لم تغفل عنه الدولة الإسلامية، ابتدءاً من عهد الخلفاء الراشدين وانتهاء ً بالعصر الحالي. ويرجع هذا الاهتمام القيادي في مراقبة القادة العسكريين لما قد يشكله خطر سقوط أحدهم في أيدي الأعداء، أو حتى خيانة الوطن والدين، الأمر الذي قد يترتب عليه هزيمة الجيش والدولة، فقد كانت مراقبة القادة العسكريين أمراً لا بد منه، وقد اهتم صلاح الدين وسلفه نور الدين زنكي بهذا الأمر كثيراً ، فكانت تتم مراقبة القادة، ثم ترفع التقارير التفصيلية عن أحوالهم وعلاقاتهم أولاً بأول، حتى أنه وصل الأمر إلى تتبع أخبارهم الخاصة (2).

وكذلك شملت عمليات المراقبة لقيادات الأعداء واستمالتهم واستقطابهم لصالح المسلمين، وهذا ما تم مع الأميرة (سيبيل) زوجة الأمير بوهيمند الثالث أمير أنطاكية، والتي كانت تنقل لصلاح الدين تحركات وأخبار الجيوش ، لذلك لم يبخل عليها صلاح الدين بالأموال والهدايا.(3)

2- مراقبة الشخصيات المهمة في الدولة:

كان الخلفاء والأمراء على مر تاريخ الدولة الإسلامية يراقبون الشخصيات الهامة التي يحتمل أن تشكل في يومهمن الأيام خطراً على الخلافة، حيث كان يلجأ إلى مراقبتها بصورة غير استفزازية، وغير منظورة، بعيداً عن الإثارة، كما يجب الإشارة إلى أن عملية المراقبة هذه كانت تختلف من خليفة إلى آخر، وبحسب طبيعة الشخصية المراقبة، إضافة إلى طبيعة الأفكار السياسية التي تحملها.

([1]) المقريزي، إمتاع (1/ 13-16)

([2]) ابن الأثير، الباهر، ص: 47.

(3) ابن شداد، النوادر، ص: 87.

وفي العهدين الزنكي والأيوبي بلغ الاهتمام بمراقبة كبار رجال الدولة مكانة كبيرة في عمل العيون، نتيجة لخطورة الوضع الذي كانت تعيشه الدولة الإسلامية بسبب الصراع مع الفرنجة، وسعيهم الحثيث لاستقطاب القادة والمسئولين المسلمين (1).

3- العمليات الخاصة:

أورد المسعودي في كتابه مروج الذهب عن بعض النشاطات التجسسية التي مورست ضد البيزنطيين، ومن هذه النشاطات تلك العملية التي خطط لها وأشرف على تنفيذها الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان ﷺ، والتي تم بموجبها خطف قائد بيزنطي من القسطنطينية ونقله إلى دمشق([2]).

4- إدارة التفاوض مع العدو:

شهد استخدام العيون والجواسيس، في المهام الدبلوماسية، تطوراً كبيراً من خلال اتساع المساحة التي أخذ يشغلها، لاسيما في محاولة إقامة قنوات الحوار الأولية، تمهيداً لاستخدام الرسل في مرحلة لاحقة، أو حتى استمرار الرسل بمهمة التفاوض إلى نهايتها سواء كان هذا الأمر مع دار الحرب، أو مع الخصوم في دار الإسلام(3).

5-الحرب النفسية:

يرتبط تأثير الحرب النفسية بمدى فعالية الخطط الموضوعة من جهة، وبجدوى الوسائل المتبعة، في تنفيذ هذه الخطط من جهة أخرى، وتكمن عظمة العمل عندما تكون الوسائل المتاحة محدودة، مقارنة بالوسائل المتوفرة اليوم نجد أن حجم الإنجازات في عصر الدولة الإسلامية كان كبيراً (4).

6- التضليل:

لقد استخدم التضليل كأحد الأسلحة في مواجهة الأعداء، ويمكن القول إن عمليات التضليل تكاد تماثل أساليب الحرب النفسية، وتندرج تحت فن الخداع، الذي وأصَّل له المصطفى ﷺ في حديثه الشريف "الحرب خدعه"([5]).

([1]) أبو حامد الغزالي، نصيحة الملوك، ص: 386.

([2]) المسعودي، مروج الذهب (4/ 126-131).

(3) البلاذري، أنساب الأشراف (6/ 426)؛ ابن الأثير، الكامل (3/ 327)؛ الذهبي، العبر (54/1).

([4]) الطبري، تاريخ (6/ 485-486)

([5]) ابن الأثير، الكامل (4/ 531)

7- الاستطلاع العميق:

كان العيون والجواسيس من أوائل الجغرافيين المسلمين الذين مسحوا المناطق المرشحة للعمليات العسكرية، تضاريسياً ومناخياً، وسكانياً، وسياسياً، واقتصادياً (1).

8- مراقبة الجهاز الإداري:

كان هذا العمل تقليداً لما سار عليه الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، مسترشدين بنصوص القرآن الكريم، الذي يؤكد على أن المنصب هو مسئولية، قد يكون تشريفاً في الدنيا والآخرة في حال كان العمل به وفق للقرآن والسنة، وقد تكون خزياً في الحياة الدنيا والآخرة في حال استغلال هذا المنصب بما لا يرضي الله، والركون على الظلم والعدوان وا ِتباع الهوى، إستناداً إلى قوله تعالى:)يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (2).

وكما قال رسول الله ﷺ: "ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد ريح الجنة" (3).

ثالثاً: وسائل عمل العيون والجواسيس.

1. الخدعة والاحتيال.

هو أسلوب حربي من الدرجة الأولى وقد استخدمته كل الأمم السابقة، وفي السيرة العطرة للنبي ﷺ ذُكر استخدام الخدعة والاحتيال، فقد أثنى صلي الله عليه وسلم على خالد بن الوليد لاستخدامه هذا الأسلوب في معركة مؤتة للنجاة بالجيش (4).

ولم يغفل عنه الزنكيون والأيوبيون، فقد كان عماد الدين زنكي ونور الدين محمود يلجأ إليه عند المواقف الصعبة فقد كان عماد الدين زنكي يرسل إلى ملك الروم يوهمه بأن حلفاءه من الفرنجة أصحاب الإمارات في بلاد الشام لا يطيعونه حباًوا ِنما يخافون منه، وأنه لو فارق مكانه تخلفو ا عنه، وفي الوقت نفسه كان يرسل إلى الفرنجة يخوفهم من ملك الروم، ويقول لهم: إن ملكاً بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً . وقد استطاع من خلال هذا الأسلوب التأثير على معنويات الطرفين من أعدائه، وكانت النتيجة أن دب الخلاف بين الفرنجة وملك الروم، مما أدى إلى رحيل ملك الروم عن

---

(1) الهيثي وصبري، الجغرافية العربية، ص: 44.

(2) القرآن الكريم، الآية: 26.

(3) البخاري، صحيح (4/ 253)

(4):؛ أبو شامة، الروضتين (1/ 166) الغضبان، المنهج الحركي، ص 340

شيزر بعد حصار دام أربعين يوماً، حسب ما ذكر ابن الأثير، وأربعة وعشرون يوماً بحسب ما ذكر أبي شامة، تاركاً خلفه المجانيق وآلات الحصار في مكانها، ليستولي عليها زنكي ويأخذها غنيمة(1).

أما نور الدين، فقد برع في استعمال كل أساليب العيون والجواسيس، ومن بينها طبعاً الحيلة والمراوغة، فقد كان يكثر من استعمال أساليب الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة (2).

فقد استطاع أن يستعمل مليح بن لاون حاكم أرمينيا الصغرى والدروب ويفصله عن الفرنجة ويجعله من المحاربين ضد اليزنطيين، ويقاتل به الفرنجة وذلك بمنحه إقطاعاً .(3).

وحين سئل نور الدين عن فعله ذلك، أجاب: " إنما حملني على استعماله أن بلاده حصينة ووعرة المسلك، منيعة، وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طلب أنحجز فيها فلا يقدر عليه. فلما رأيت المال هكذا، بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا، وساعدنا على الفرنج"(4).

وقد أكدت الأحداث التالية صحة ما ذهب إليه نور الدين، فبعد وفاته سلك من تولى بعده غير هذا الفريق، "فاستولى المتولي للأرض بعد مليح على كثير من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه"(5).

وبفضل الخدعة تمكن نور الدين من نسف التحالف المعقود بين الفرنجة والوزير الفاطمي شاور ضد أسد الدين شيركوه كقائد القوات الشامية بمصر، حيث يذكر أبو شامة أن نور الدين عندما أغار على بلدة طبرية وكانت للصليبيين، جمع أعلامهم وشغافهم (ملابس وسلاح) "وجعلها تحت يده، ثم سلمها إلى نجاب (أحد مسئولي العيون في المنطقة): وقال له: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس وتخبر بلبيس فإن ذلك مما يفت في أعضاد الكفار ويدخل الوهن عليهم"(6).

وقد فعل أسد الدينشير كوه ما أمر به، " فلما رأى الفرنج الأعلام والشعاف قلقوا لذلك وخافوا على بلادهم وسألوا شاور الإذن والانفصال"(7).

فبفضل هذه الخدعة أصيب الفرنجة بالإحباط لأن تأثيرها المعنوي عليهم كان أشد من وقع السيوف. كذلك لم يغفل نور الدين استخدام هذا الأسلوب ضد خصومه في دار الإسلام، وقد استطاع عن طريق الحيلة أن يفرق بين خصومه ورعيتهم وجنودهم، وكان يظهر هؤلاء الخصوم بمظهر

---

(1) ابن الأثير، الباهر، ص: 169.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) أبو شامة، الروضتين (1/ 166)

(5) ابن الأثير، الباهر، ص: 169.

(6) أبو شامة، الروضتين (1/ 167)

(7) أبو شامة، الروضتين (1/ 167)

المتعسرين بالنسبة لرعاياهم، العاجزين عن حمايتهم، وأنهم متآمرون مع الفرنجة ضدهم، ومتعاونون معهم ضد مصلحة المسلمين(1).

وكان نور الدين يسعى دائماً لأن يجد له أعواناً في البلدة المحاصرة ليسهلوا عليه أمر فتحها، وخير مثال على ذلك ما نهجه مع مجير الدين صاحب دمشق، حيث تمكن بالخدعة من الدخول إلى دمشق دون إراقة دماء. فقد أدرك بعبقريته أن فتح المدينة لن يتأتي له بالقوة، لذلك بدأ يراسل مجير الدين ويستميله ويبعث إليه بالهدايا ويظهر له المودة حتى وثق إليه. ثم صار يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه، ويقول له إن فلاناً – ويذكر بعض الأمراء لمجير الدين – قد تتبنى في المخابرة عليك فاحذره، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال أبرز أصحابه ومستشاريه، عندما راسل نور الدين أحداث دمشق وناظرته واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد دون مقاومة (2).

وقد تمكن أحد أمراء صاحب دمشق يدعى عطاء بن حافظ السلمي الخادم من كشف الحيلة التي حاكها نور الدين، فأخبر بها مجير الدين وقال: "إن الحيلة قد تمت عليك، فلا تقتلني، واستبقني فإنه سيظهر لك ما أقول، غير أن مجير الدين لم يلتفت إليه وقتله" (3).

أما صلاح الدين فقد كان بارعاً في استخدام أسلوب الحيلة والاحتيال لتحقيق أهدافه حيث تذكر المصادر التاريخية أحداثا كثيرة استخدم فيها صلاح الدين الحيلة والاحتيال بواسطة عيونه مع أعدائه من الفرنجة وكذلك مع خصومه، فها هو يستخدم هذا الأسلوب لجعل ماردين تحت حكمه وسلطانه، فاستطاع أن يحتال على أرملة ملك ماردين ليجعلها تحت حكمه مقابل أن يزوج بناتها لأبنائه وقد فعل، يذكر ابن الأثير هذه الحادثة بقوله: "لما سار صلاح الدين إلى خلاط جعل طريقه على ميا فارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفي، كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفي طمع في أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوقي ومعها بنات لها منه وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحاصرها من أول جمادي الأولى وكان المتقدم على أجنادها أمير اسمه يرنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعاً شهماً يحفظ البلد فأحسن إليه واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب إلى إعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها إن أسد الدين يرنقش قدم إلينا في تسليم البلد ونحن نرعى حصن أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك في هذا الأمر نصيب وأنا أُزوج بناتك لأولادي وتكون ميا فارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من أرسل إلى الأسد يعرفه أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان واتُفق أن رسولاً وصله من خلاط

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 309.

(2) ابن الأثير، الباهر، ص 107.

(3) ابن الأثير، الباهر، ص: 196.

يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء إليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل إلى ميا فارقين وقال للأسد أنت عن من تقاتل وأنا قد جئت في تسليم خلاط إلى صلاح الدين فسقط في يده وضعف قوته وأرسل يقترح أقطاعاً ومالاً فأجيب إلى ذلك وسلم البلد جمادي الأولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خانون وأقر بيدها قلعة هناخ لتكون فيها هي وبناتها" (1).

وفي فتح حصن بكاس والمشغر الموجود بيد الفرنجة فعل الأمر نفسه من استخدام الحيلة. يقول ابن الأثير: "ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادي الآخر فوصل إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخذوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم إلى قلعة الشغر وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى اللاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق لذلك أمر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من الحجارة إلى القلعة شئ إلا القليل الذي لا يؤذي واستمر الحال على ذلك أياماً فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وأعمال الحيلة في الوصول إليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم في هذا الحديث إذا قد أشرف عليهم فرنجي ونادي بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث سلموها إلى صلاح الدين واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر جمادي الآخر وكان سبب احتمالهم أنهم أرسلوا إلى البيدمنت صاحب المسلمين؛ فإن فعل وا إسلاموها وا إنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وا لا خلوا أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً لما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه"(2).

ومن الحيل التي نفذها مع الفرنجة ما قام به من مكر وحيلة لفريمة جوسلين وأسره في سنة 549هـ وأعمل الحيلة على جوسلين، فقد "أحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلا أو أسيرا ؛ لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بمجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيدا، فلحقت به طائفة منهم وظفروا به" (3).

ومن أعمال نور الدين أيضاً في الإخفاء والتمويه من خلال لعب الكرة أمام أعين الفرنج حتى يظنوا أنه لاهي، ولا يستعد للقتال(4).

---

(1) ابن الأثير، الكامل (10/ 134)

(2) ابن الأثير، الكامل (10/ 170)

(3) ابن العديم، زبدة الحلب (302/2)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (24/1)

(4) أبو شامة، الروضتين (35/1-36، 30/2، 308)

وهذا ما عبر عنه نور الدين نفسه حين رد على أحد المعترضين على ممارسته لهذه اللعبة على سبيل اللهو، فكتب له نور الدين بخط يده يقول: " والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر إنما نحن في ثغر العدو قريب منا وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب"(1).

كما مارس صلاح الدين الصيد أيضاً كوسيلة من وسائل الإخفاء والتمويه، وظهر ذلك جليا عندما تم فتح حصن بيت الأحزان الذي كان بيد الداوية، والذي أصاب منه المسلمين ضرر كبير، إلى أن مكنه الله منه، وخدع الأعداء وأخذهم على حين غرة على اعتبار أنه لما يكن محارباً، وا ٍنما كان يصطاد، فكان السلطان يركب كل يوم " بحجة الصيد وينزل على النهر ويجرد فرسان الجلاد والقهر ويسير قبائل العرب"(2).

ومن الأعمال التي مارسها المسلمون في التمويه والإخفاء عن الأعداء تغيير الملابس أو خلعها، حتى يشك الأعداء بهم، ويعتبرونهم منهم، ثم يفاجئونهم بالقتل والتنكيل، فقد " تجرد شباب من رجال شيزر وخلعوا ثيابهم وأخذو ا سيوفهم وسجدوا إلى أولئك فقتلوا بعضهم وتكاثروا على أصحابنا، فرصوا أنفوسهم إلى الماء وجازوا، وعسكر الفرنج قد ركب من الجبل مثل السيل"(3).

كذلك لم يغفل الإفرنج أيضاً استخدام التخفي بملابس مدنية وعربية لمهاجمة المسلمين، والنيل منهم على حين غرة، ولكن لولا عناية الله، وحسن انتباه المسلمين، ونشر المخبرين في كل مكان لنالهم أذى كثير من جراء استخدام الفرنج هذه الحيلة عند حصن بانياس(4).

2. التجسس.

شهدت فترة الصراع الإسلامي الفرنجة في العهدين الزنكيوالأيوبي أعمالاً تجسسية كبيرة نظراً لطبيعة الصراع الديني الذي استمر لأكثر من مائتي عام، والتي كانت تتستر خلفه أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية لأمراء أوروبا وملوكها الذين سعوا لإيجاد ممالك جديدة لهم في الشرق، وكان الغطاء العام لتبرير قدومهم إلى الشرق هو حماية القبر المقدس كما كانوا يدعون لذلك كان الصراع الفرنجة مع المسلمين في بلاد الشام إحلالياً إستيطانياً أكثر منه استعمارياً، ونظراً لوجود دولة إسلامية كانت قائمة وقادت الصراع مع الفرنجة برغم ضعفها، إلا أنها استطاعت أن تقود المواجهة الإسلامية مع الفرنجة.

وكان من الطبيعي أن تتم المواجهة بالأعمال العسكرية والمعارك الطاحنة، وقد أدرك الزنكيون ومن بعدهم الأيوبيون أهمية العمل الاستخباري، فبنوا له مؤسسة لإدارة الأعمال فيه، شكلت في مجملها

---

(1) أبو شامة، الروضتين (35/1)

(2) أبو شامة، الروضتين (3/ 26)

(3) ابن منقذ، الاعتبار (1/ 23-33)

(4) أبو شامة، الروضتين (34/3)

العين التي كان يرى فيها القائد لاتخاذ قراره الصحيح، كما كان للصليبيين جهازهم الخاص للعيون والجواسيس الذي واجهوا من خلاله المسلمين في بلاد الشام ومصر.

وتركزت أهم الأعمال التجسسية على التجسس، وزرع العيون والجواسيس في كل الممالك في الشرق.

فالتجسس في حد ذاته هو عمل سياسي عسكري استعمل ويستعمل وسيظل يستعمل إلى الأبد، ويجمع كل الخبراء السياسيين والعسكريين على شجاعته في أوقات السلم الحرب.

فقبل الإقدام على الغزو كان نور الدين يكلف رجالاً أوفياء بتقصي أخبار الفرنجة، والكشف عن المواقع السليمة والآمنة لإقامة المعسكرات للجند، ونقاط توافر المياه الكافية(1).

وكان جهاز التجسس مكوناً من وحدات خاصة، أهمها وحدة الجواسيس، حيث كان العاملين في هذه الوحدة يتنكرون في هيئة مسافرين أو متصوفة، ويتقاضون أجوراً عالية تجعلهم في غنى عن المطامع والارتشاء، وقد كانوا يرسلون تقاريرهم الدورية لولي الأمر يطلعونه من خلالها على ما يقوم به الولاة والأمراء في إقطاعيات الدولة البعيدة، وذلك من أجل أن يتعرف ولي الأمر على صدق نوايا وممارسات ولاته العاملين. يذكر أن العلماء والوعاظ إلى جانب التجار والرعاة والمستأمنين كان لهم دور مهم في ممارسة أعمال التجسس في الدولة الزنكية(2).

يذكر الماوردي في الأحكام السلطانية ما كان يجب على الأمير أخذه بعين الاعتبار قبل خروج جيشه في كل مواجهة مع العدو، فيقول: "أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحواله حتى يخبرها فيسلم من مكره ويلتمس النصر في الهجوم عليه"(3).

فعماد الدين زنكي لم يتقدم لمحاصرة الرها سنة (539هـ)، إلا بعد أن أخبره الجواسيس بخلوها من أميرها والمدافع عنها جوسلين(4).

و يؤكد ابن الأثير على قضية زرع الجواسيس في قصته التي يرويها عن عماد الدين، بقوله: "ثم إن مجاهد الدين كرر المراسلات إلى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستحيله فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق إلى بلاده يذكر فيه موت أخيه وأن البلاد قد استقرت لولد الملك الأفضل والناس متفقون على طاعته وأنه هو المدبر لدولة الأفضل وقد سيره في عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعضالقرى التي له وذلك من هذا النحو شيئاً كثيراً فظنوه حقاً وأن قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأي فسيروا الجواسيس فأتتهم الأخبار بأنه في ظاهر حران من نحو مائتي خيمة لا غير فعادوا

---

(1) البهيني، وقفات، ص: 198.

(2) أبو شامة، الروضتين (473/2، 167/4)؛ البهيني، وقفات، ص: 198.

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: 52 - 53.

(4) ابن الأثير، الكامل (331/9)

تحركوا فإلى أن تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار وأقبلت العساكر الشامية التي سيرها الأفضل وغيره إلى العدل فامتنع بها وسار أتابك عز الدين عن الموصل إلى نصيبين واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريباً منها بمرج"(1).

وقد عمل صلاح الدين على زرع الجواسيس داخل صفوف الفرنجة، فقد ورد في الروضتين ما يؤكد ذلك، حيث يقول: "ثم انقضت الجمعة بخبر فلما كان عيشتها ونحن في خدمته على العادة، وصلت رقعة جرديك . وكان في اليزك . يقول فيها إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في البر على ظهر ثم عادوا إلى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم، ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم "(2).

لقد عمل الجواسيس منذ وطأت أقدام الفرنجة بلاد الشام على رصد تحركاتهم وتقصي أخبارهم ونقلها إلى قادة وحكام المسلمين كإسهام منهم في مقاومة هذا العدو، وحتى يتخذ قادة المسلمين الاحتياطات اللازمة لتوخي أي هجوم صليبي والحذر منه[3]، فقدَّ قدموا معلومات مهمة في مجال رصد وتتبع الفرنجةنظراً لمعايشتهم المباشرة لهم، ومعرفتهم بتحركات العدو بين القرى والضياع والمدن الإسلامية المحتلة، وقد أوردت المصادر الإسلامية بعض الأمثلة التي تؤكد ذلك، ومن هذه الأدلة ما ذكره ابن القلانسي[4] خلال حديثه عن حوادث سنة 513هـ/1119م من أنَّه قد "وردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده لمهاجمة المسلمين، ولكنَّه انهزم، وا ذا ركزنا النظر في النص فإننا نجد أن هناك أخبارا ترد تباعا عن تحركات الفرنجة، فمن أين مصدر هذه الأخبار؟ إنها بالتأكيد من الجواسيس المنشرين في كل مكان .

ومن الأمثلة الأخرى التي توردها المصادر المعاصرة ما حدث عام 519هـ/1125م عندما وصلت الأخبار من ناحية بلدوين الأول ملك الفرنجة بالاحتشاد والتأهب والاستعداد لقصد ناحية حوران من عمل دمشق للعبث فيها والإفساد، وشرع في شن الغارات على الجهات القريبة من دمشق والمضايقة لها وقطع الطرقات على الواردين إليها، فعند المعرفة بذاك والتحقق، شرع ظهير الدين أتابك دمشق في الاستعداد للقائه والاجتماع على جهاده وكاتب أمراء التركمان ومقدميهم وأعيانهم بإعلامهم صورة الحال ويستنجد بهم عليه ويبذل لهم الإحسان والأنعام، وظهر في عسكره، وقد ورد عليه خبر قربهم من طبرية قاصدين أعمال البلد من مرج الصفر، ويشير المصدر نفسه إلى أن وصول الأخبار

(1) ابن الأثير، الكامل (227/10)

(2) أبو شامة، المصدر السابق (310/4)

([3]) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 204، 215، 230؛ الحموي، مضمار الحقائق، ص: 16.

([4]) ابن العديم، زبدة الحلب (551/3-554).

من رجال المقاومة الشعبية الذين كانوا يعملون كعيون للمسلمين، واتخاذ الاحتياطات لمواجهة هذه الغزوة كانا من أهم الأسباب في إفشال مخطط الفرنجة[1].

ومثال آخر ما حدث عام 522هـ/1128م عندما طمع الفرنجة في دمشق بعد وفاة حاكمها ظهير الدين طغتكين وتولية ابنه تاج الملوك بوري[2]، فأكثروا الحديث في قصدها وبثوا رسلهم إلى الأعمال في جمع الرجال والاحتشاد فاجتمع اليهم سائر ما اشتملت عليه بلادهم من الرها وأنطاكية وطرابلس والساحل، كما وصلت اليهم أساطيل أوروبية محملة بأعداد كبيرة من الجنود الفرنجة فاجتمعوا ونزلوا على بانياس وخيموا عليها وشرعوا في تحصيل المؤن والأغذية للإقامة "وتواترت الحكايات عنهم ممن شاهدهم وأحصى عددهم أنَّهم يزيدون عن ستين ألف فارس "[3].

وعندما تأكد تاج الملوك بوري من صحة الخبر الذي نقله له بعض أفراد المقاومة الشعبية أعدَّ العدة وخرج لملاقاة الفرنجة، وكان الفرنجة قد رحلوا عن بانياس طالبين دمشق ونزلوا على جسر الخشب والميدان المعروف المجاور له وخيموا هناك، فعسكر تاج الملوك بوري بقواته في مواجهتهم، لكنَّ جيش الفرنجة لم يتحرك لعدة أيام من مكانه وهنا لعب أفراد المقاومة الشعبية دورهم في كشف أخبار العدو حيث علموا أنَّ الذي أوجب تأخر زحف الفرنجة أنَّهم قد جردوا أبطال خيلهم وشجعان رجالهم للمسير مع البغال إلى حوران لجمع المير والغلال التي يستعان بمثلها على الإقامة والنزال وأنَّهم لم يتحركوا إلا بعد عود المذكورين"[4]، فكان لهذا الخبر الذي نقله بعض أهالي المنطقة أثره الواضح في الخطة التي وضعها بوري، حيث قرر عمل كمين عند ناحية براق في طريق حوران؛ لأن الفرنجة سيمرون عليها عند عودتهم بالمؤن والغلال، وبالفعل نجحت الخطة وتمَّ الإيقاع بهذه القوة وغنموا منهم وأسروا أكثرهم، وكان لهذه الهزيمة التي ألحقت بالفرقة دورها في انسحاب القوة الرئيسة التي كانت تنوي مهاجمة دمشق[5]. وقد أشار ابن منقذ[6] في مشاهدته إلى دور الجواسيس في نقل أخبار العدو ورصد تحركاته إلى حكام شيزر من بنى منقذ خلال حصار الروم و الفرنجة لمدينتهم ،حيث قال: "كنَّا في حصار الروم في دهليز الحصن بعددنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو ،وقال:يا مسلمون، الحريم!دخل الروم علينا،فأخذنا سيوفنا وخرجنا فوجدناهم قد طلعوا من ثغرة في السور فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم ،وبقيت أنا وذلك الشيخ الذي استفزعنا.فوقف وأدار وجهه إلى

([1]) ابن القلانسي، الذيل، ص: 213.

([2]) تاج الملوك بوري أبو السعيد بن أتابك طغتكين، من أتابكة السلاجقة وصاحب دمشق سنة (522هـ/1128م) = ولد سنة (478هـ/1085م)إ لى اسمه ترجع تسمية هذه السلالة الحاكمة (بالبوريين)اتصف بالحكم والكر م قتل سنة (526هـ/1132م). انظر في ترجمته ابن الأثير، الكامل (248/9، 265)؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان (290/1-292).

([3]) ابن القلانسي، الذيل، ص: 224-225.

([4]) ابن القلانسي، الذيل، ص: 225.

([5]) ابن القلانسي، الذيل، ص:225؛ ابن الأثير، الكامل (251/9).

([6]) ابن منقذ، الاعتبار، ص: 146.

الحائط يريق الماءأفرضت عنه، فسمعت صرخة ، فالتفت وا ٍذا الشيخ قد ضربت رأسه حجر المنجنيق كسرته وألصقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط". وفي الرواية السابقة التي أوردها ابن منقذ وهو شاهد عيان ما يفيد أيضا بأنَّ الجواسيس قد يفقدون حياتهم في سبيل الوطن وهم يؤدون مهمته الخطيرة، فالشيخ الذي يحدثنا عنه ابن منقذ قد استشهد بعد إصابته بجراح بليغة في رأسه نتيجة القصف المتواصل لشيزر، بعد مشاركته في سقاية الماء للجند بعد أن استنفر هممهم لحماية أعراضهم التي جاء الفرنجة لينتهكوها[1].

وا ٍن كانتلأمثلة السابقة تشير إلى ذلك، إلاّ أنَّنا سنورد بعض الأمثلة للتأكيد على أنَّ سكان الأرض المحتلة – أي الذين خضعوا للحكم الفرنجة–قد أدُّوا دوراً على جانب كبير من الأهمية في نفس الجانب، وبخاصة عندما يشعرون بوجود قائد مسلم يحمل راية الجهاد، وهذا ما نستطيع أن نستنتجه ممَّا حدث في كثير من الحالات[2].

ففي سنة 545هـ/1150م استطاعت مجموعة من التركمان الظفر بالأمير جوسلين الفرنجة حاكم تل باشر بعد أن طلب منهم نور الدين محمود ذلك ووعدهم بكل ما يطلبوه، ولم يكن باستطاعة تلك المجموعات الظفر به لولا أن جعل "التركمان عليه العيون، فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه إلى نور الدين أسيراً "[3] ويبدو أن هؤلاء التركمان قد استفادوا من المعلومات المتعلقة بتحركات ذلك القائد الفرنجة من خلال سكان المنطقة من الفلاحين الذين علموا بخروج جوسلين للصيد في منطقتهم فأسرعوا بنقل الخبر إلى التركمان ليستغلوا الموقف لصالحهم، ونجحوا بالاستفراد به والقبض عليه. "فكان أسره من أعظم الفتوح؛ لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسي القلب، وأصيبت النصرانية كافة بأسره"[4]

وفي 13 ربيع الأول 552هـ/25 إبريل (نيسان) 1157م توجَّه نور الدين محمود لتفقد أحوال مدينة بعلبك، وبعد وصوله "تواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الإفرنج الملاعين على تلك الأعمال وا ٍطلاقهم فيها أيدي العبث والفساد"[5]، واستدعت تلك الأخبار التي تناقلها أفراد المقاومة الشعبية لنور الدين محمود ترك بعلبك والخروج لوضع حد للانتهاكات التي ترتكبها قوات الاحتلال الفرنجة[6].

([1]) الفراني، المقاومة، ص: 401.

([2]) المرجع نفسه.

([3]) ابن الأثير، الكامل (369/9)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (302/2).

([4]) ابن الأثير، الكامل (369/9)

([5]) ابن القلانسي، الذيل، ص: 338.

([6]) المصدر نفسه.

وعندما نزل نور الدين إلى الكرك وذلك سنة 565هـ/1169م "أتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا إليه"[1]،ممَّا جعل نور الدين يرحل عن الكرك ليلقاهم قبل أن يصلوا إليه، وقبل أن تزداد أعدادهم بوصول المدد العسكري إليهم[2].

واستمراراً لنهج الجواسيس في تعقب ورصد الفرنجة فإننا نجدهم يزودون صلاح الدين الأيوبي وقواته بالمعلومات التي تتعلق بتحركات العدو، ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة 570هـ/ 1174م عندما كان صلاح الدين في حلب "جاء الخبر بتوجه القومص في الإفرنجية إلى حمص"[3]، مما استدعى مغادرة صلاح الدين المدينة لإنقاذ حمص من الخطر الفرنجة، وهذا بدوره أدى إلى أن يرجع الفرنجة هم وقائدهم عن الهدف المنشود دون تحقيق أي شيء يذكر "خوفاً مما يقع فيه ويتم عليه"[4].

وما حدث بعد هزيمة الفرنجة وفشلهم في احتلال مدينة حماة عام 573هـ/1173م جعلهم يتوجهون بعد ذلك لاحتلال حارم فقام أفراد المقاومة الشعبية بنقل هذا الخبر إلى صلاح الدين "فحثَّ السلطان العزائم"[5] لإنقاذ المدينة من الهجوم الفرنجة.

وفي سنة 574هـ/1187م "تواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين"[6]، ونظراً لأن هذا الخبر كان متواتراً ونقله أكثر من فرد من أفراد المقاومة الشعبية فإن صلاح الدين تأكد من صحته وأصدر أوامره بخروج فرقة من عساكر المسلمين بقيادة ابن أخيه عز الدين فرخشاه لمواجهة تلك الجماعة ، وبالفعل اتجه عز الدين نحو الفرنجة واشتبك معهم في موقعة صغيرة "قتل فيها جماعة من مقدمي الفرنج وغيرهم، منهم الهنفري وصاحب الناصرة فانهزموا وأسر منهم جماعة"[7]، وفي بعض الأحيان لم يكن صلاح الدين يثق بكل الأخبار والمعلومات التي ينقلها له سكان الأرض المحتلة لأنَّه كما ذكرنا كان يعتمد على جهاز المخابرات الذي كوَّنه لنفسه من الجواسيس، لأنَّه كان يعلم جيداً أنَّ القائد العسكري الماهر يجب عليه التأكد من صحة كل خبر أو معلومة تنقل اليه لأنها قد تكون من قبيل الإشاعات، أما ما ينقله الجاسوس أو العميل المزروع وسط العدو فإنها معلومات موثقة ورسمية ولعل أبرز ما يؤكد ذلك هو ما حدث في سنة 575هـ/1179م قبيل اندلاع معركة مرج عيون والسلطان مخيم بتل القاضي في بانياس فبينما هو على تلك الحال وقد قرر ترك المنطقة شاهد أبقاراً وأغناما

([1]) ابن الأثير، الكامل (23/10)

([2]) ابن الأثير، الكامل (23/10)؛ البنداري، سنا البرق، ص: 47.

([3]) البنداري، سنا البرق، ص: 84.

([4]) المصدر نفسه، ص: 84.

([5]) المصدر نفسه، ص: 137.

([6]) المقريزي، السلوك (177/1)؛ ويقصد ببلاد المسلمين هنا دمشق. انظر: ابن الأثير، الكامل (92/10)

([7]) المقريزي، السلوك؛ ابن الأثير، الكامل (93/10)؛ وقد وصف القتال الذي جرى بين المسلمين والصليبيين بقيادة الهنفري بأنه "أشد قتال رآه الناس" وأنه بمقتل الهنفري فأنَّ المسلمين قد أراحهم الله من شره لأنه "كان بلاء صبه الله على المسلمين".

جافلة عن موضعها "وجاءه بعض الرعاة وأخبر أنَّه شاهد عسكر العداة"[1] الفرنجة ولكنَّ السلطان استبعد ذلك قائلاً : لو كان ذلك صحيحاً لجاءنا الجاسوس"[2].

ومهما يكن من أمر فإنَّه مع استمرار الاحتلال الفرنجة للأرض العربية الإسلامية فى بلاد الشام ظل الأهل في هذه البلاد أوفياء لحكامهم في نقلهم أخبار العدو ففي سنة 577هـ/1181م "شاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم وأتوا من السبي والنهب بالعظائم"[3] وإشاعة الخبر هنا ونقل مثل هذا الحدث لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الجواسيس، فقاموا بنقل ما حدث إلى المعنيين بالأمر ليقوموا بحمايتهم والوقوف في وجه الغطرسة ، كما أن الإشاعة هنا لا يقصد بها الشائعة المعروفة في عصرنا وإنَّما وكما وردت في سياق الرواية تحمل معني الانتشار و التفرق[4].

وفي سنة 583هـ/1178م وخلال حصار صلاح الدين لمدينة طبرية في سبيل الضغط على الفرنجة المتمركزين في صفورية[5] "جاء من أخبر بأنَّ الفرنج قد ركبوا"[6] لمساعدة من في طبريا من الفرنجة، وبذلك نجحت خطة السلطان في إخراج الفرنجة من صفورية ففرح "وقال: جاءنا ما نريد ونحن أولو بأس شديد"[7].

وقد جرى أنَّ بعض الجواسيس لم يكتف بجمع المعلومات ورصد تحركات العدو بالمشاهدة السرية فقط، بل لجأ إلى الاستفراد بالجنود الفرنجة وإجبارهم على الإدلاء بالمعلومات التي يمكن أن تفيد المسلمين ومن ثم نقل هذه المعلومات إلى قادة وحكام المسلمين، وكمثال على ذلك ما حدث سنة 584هـ/1188م حيث قرر الفرنجة إنفاذ النجدات العسكرية إلى مدينة صفد[8] والتي كان يحاصرها صلاح الدين بقواته، وقد بلغ عدد أفراد هذه النجدة العسكرية ما يقارب المائتي رجل من شجعانهم وأقويائهم-ما يطلق عليهم حديثاً بالوحدات الخاصة أو الكوماندوز- "فساروا في الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق أن رجلاً من المسلمين، خرج متصيداً، فلقي رجلاً من تلك النجدة، فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه هناك، فأقرَّ بالحال ودلَّه على أصحابه"[9] وهنا

([1]) البنداري، سنا البرق، ص: 164.

([2]) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 220؛ ابن الأثير، الكامل (95/10)؛ البنداري، سنا البرق، ص: 165؛ أبو شامة، الروضتين (34/3)؛ وروايته المنقولة من ابن أبي طي لم تشر إلى وجود الجاسوس بل أكدت بأنه "وصل بعض الرعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار- أي السلطان- حتى أشرف على الفرنج". انظر: السبكي، طباقت الشافعية (366/7).

([3]) الحموي، مضمار الحقائق، ص: 59؛ البنداري، سنا البرق، ص: 185.

([4]) ابن منظور، لسان العرب (182/1).

([5]) صفورية: كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام وهي قرب طبرية . ياقوت، معجم البلدن (414/3)؛ وانظر: حول حصار طبرية وفتحها ابن الأثير، الكامل (145/10-146)؛ أبو شامة، الروضتين (279/3)

([6]) ابن الأثير، الكامل (146/10)؛ أبو شامة، الروضتين (279/3)

([7]) أبو شامة، الروضتين (279/3)

([8]) صفد: مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهي من جبال لبنان..ياقوت، معجم البلدان (412/3)

([9]) ابن واصل، مفرج الكروب (273/2)

ذهب الرجل المسلم إلى قائد العسكر وأعلمه "بصورة الحال والفرنجي معه، فركب في طائفة من العسكر إلى الموضع الذي اختفى فيه الرجال، فكبسهم وأخذهم، وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم ينفلت منهم أحد"[1].

وقد حاول الفرنجة منع الجواسيس من إيصال المعلومات إلى المحاصرين في عكا "فنصب الفرنج الشبك في البحر ،فإذا جاء سابح وقع فيها،فامتنع الناس"[2]. ويبدو أن طريقة الفرنجة تلك قد أتت أكلها ممَّا جعلهم يمتنعون عن نقل المعلومات عبر البحر، وخاصة بعد استشهاد وأسر العديد منهم كعيسى العوام الذي سبق الإشارة إليه.

ومما سبق ندرك أن فئات الشعب المختلفة شاركت في مقاومة العدو الفرنجة من خلال نقل المعلومات، سواء أكانوا من السباحين المهرة الذين قدموا أنفسهم ومهارتهم في السباحة رخيصة في سبيل الله ومقاومة العدو،أومن التجار الشاميين الذين استغلوا تجارتهم ومقدرتهم على الدخول إلى معسكرات العدو في معرفة أخبار هذا العدو ونقل المعلومات المتعلقة به إلى الحكام المسلمين[3].

وكانت أبرز الأخبار التي تناقلها الجواسيس أخبار الحملة الألمانية القادمة من ألمانيا إلى الفرنجةالمحاصرين لعكا وذلك نظراً لتشتت أفراد هذه الحملة وتفرقهم في المناطق الإسلامية بعد غرق مليكهم فريدريك بربروسا[4].

وقد روى ابن شداد[5] كيف أنَّه شاهد أحد الجواسيس وهو ينقل بعض أخبار هذه الحملة إلى صلاح الدين فقال:" ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء، قليلو الخيل والعدة، وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة"، ولم يتوقف سبيل المعلومات المتعلقة بهذه الحملة وأفرادها "ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض"[6]، وعندما تحقق صلاح الدين من هذه الأخبار والمعلومات أصدر أوامره بتسيير العساكر إلى البلاد المتاخمة لطريق ما تبقى من فلول الجيش الألماني، ويظل هو بباقي العسكر حول عكا[7].

لم يخف الجواسيس كرههم لقادة الفرنجة وزعمائهم فعملوا على تعقبهم ورصد تحركاتهم ونقلها إلى صلاح الدين الأيوبي ومثال ذلك ما حدث في شهر رمضان سنة 587هـ/سبتمبر (أيلول)1191م عندما علم الجواسيس " بأنَّ الملك الإنجليزي والذي أذاق أهل عكا الويلات قد خرج للحطابة والحشاشة، وهنا أرسل الجاسوس بهذا الخبر للمجاهد السلطان صلاح الدين، الذي أصدر بدوره

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب (273/2)

([2]) الحنبلي، شفاء القلوب، ص: 171.

([3]) الفراني، المقاومة، ص: 408.

([4]) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص:396؛ أبو شامة، الروضتين (134/4-138)

([5]) ابن شداد، النوادر، ص: 111؛ أبو شامة، الروضتين (137/4)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (323/2)

([6]) ابن شداد، النوادر، ص:111؛ أبو شامة، الروضتين (138/4)

([7]) أبو شامة، الروضتين (138/4)

الأوامر بنصب كمين له بناءً على هذه المعلوماتوكاد يؤخذ الملك، لكنَّ فداه أحد خواصه بنفسه بأن أظهر حسن لباسه، فظن أنه الملك فأسره"[1].

ونظراً لمواصلة الفرنجة إغاراتهم على المناطق الإسلامية وما كانت تحدثه تلك الإغارات فإن لجواسيس واصلوا نقل أخبارها إلى السلطان صلاح الدين ليضع حداً لها ففي الحادي عشر من ربيع الأول سنة 588هـ/آذار(مارس) 1192م"وصل من أخبر أن الإفرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون . الداروم . وأنهم أخذوا منهم جماعة..وزهاء ألف رأس غنم، فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم"[2]، لأنهم استطاعوا الفرار من المنطقة قبل وصول القوات الإسلامية إليهم بناءً على المعلومات التي قدمها بعض الجواسيس.

كانتحرب الجواسيس قائمة على أشدها بين المسلمين و الفرنجة، ولكن الغلبة كانت بفضل الله ومنته للمسلمين نظراً لجهودهم وخبرتهم، ووقوف المواطنين إلى صفهم، واستعدادهم لمساعدتهم وهذا ما تؤكده أساليب المقاومة الفردية والجماعية التي قام بها المسلمون وحتى النصارى من سكان البلاد، ففي إمارة أنطاكية كان سكان القرى اغلون على استعداد دائم للثورة ضد الحكم الفرنجة عند أول فرصة تسمح بذلك(3).

وفي سنة (507هـ/ 1113م) أعلن أهل فلسطين حالة التمرد والعصيان بسبب الحملة التي شنها شرف الدين مودود صاحب الموصل على مملكة بيت المقدس، وفي ذلك يقول (فوشي دي شارتر) في نص أورده وليم الصوري: "لقد هاجرنا في تلك الأيام خدمنا وكذلك الشر قيون الساكنون في قانا المسماة بالمستعمرات وانضموا إلى كتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا، وكان ذلك أمراً ميسوراً عليهم لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا، إذ ليس هناك وباء أشد فتكاً بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته"(4).

ولم يقتصر هؤلاء على إرشادهم بل أسدوا خدمات جليلة للجيش الإسلامي تمثلت في تزويده بالمؤن والطعام وا إيصالها إليه، وانضم إليهم كذلك مسلمو المناطق الجبلية المجاورة ونهبوا كل المناطق التي استطاعوا الوصول إليها)5).

وفي ذلك يقول ابن الفلانسي: "وسرايا الإسلام قد بلغت أرض بيت المقدس ويافا وأخرجت أعمالهم ودوختها واستاقت عوامها ومواشيها وغنمت ما وجدته فيها"(6).

([1]) ابن الأثير، الكامل (59/10)؛ ابن العديم، زبدة الحلب (103/3)؛ ابن واصل، مفرج الكروب (178/2)

([2]) ابن شداد، النوادر، ص: 200.

(3) Mayer, H.E, studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem, in Dumbarton Oaks papers. XXVI, 1972, P67 – 68

(4) وليم الصوري، الحروب الصليبية (302/2)

(5) عبد المجيد بهيني، الجيش الأيوبي، ص: 21.

(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 186.

"تلكم كانت صورة فلسطين . يقول براور (prawer) (507هـ/1113م)"(1).

وفي سنة (519هـ/1125م)، نشبت انتفاضة فلاحية كبيرة في منطقة بيروت وصيدا، وذلك بسبب رفض الفلاحين المسلمين دفع الأتاوى لـ(غوتيه) (Gautier) سيد بيروت(2).

وفي سنة (1145م/ 539هـ)ثار فلاحو ا العويرة بالقرب من البتراء واستنجدوا بالسلاجقة ضد الحكم الفرنجة في عهد بودوان الثالث(3).

كما يذكر العماد الكاتب الأصفهاني أن معظم أهل ضياع نابلس "كانوا مسلمين وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين و هم يحبون كل عام منهم ضرار"(4).

وهو الأمر الذي يوحي بوجود محاولات متكررة من أجل التخلص من السيطرة الفرنجية، والارتحال إلى الأراضي الإسلامية المجاورة خاصة إذا علمنا أن الرقابة على الهجرة والمهاجرين كانت شديدة جداً (5).

ومن أساليب المقاومة الجماعية رفض الفلاحين جني الغلال كتعبير عن التذمر من الحكم الفرنجة، والهجوم على الأسياد، ومما يؤكد ذلك بشكل غير مباشر أن مجموعة قوانين ملك بيت المقدس كانت تعطي السيد الفرنجة الحق في ملاحقة الفلاحين المسلمين الهاربين ويعيدهم بالقوة، علماً بأن هؤلاء الفلاحين كانوا يشكلون أحياناً عصابات تتكل بالفرنجة، وتعمل على تخريب ممتلكاتهم(6).

يقول وليم الصوري كان الفلاحون المسلمين يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا، "بل إنهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت إلى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم"(7).

وكل من كانت تسنح له الفرصة بمغادرة قريته الواقعة تحت حكم الإفرنج للالتحاق بدار الإسلام لم يكن يتردد، بل تشير المصادر إلى أن قرى بأكملها قد فرت من حكم الفرنجة مثل أهل قرية جبة بشري التابعة لإمارة ط ابلس وكذلك آل غراب بجبل لبنان في حدود سنة (565هـ/1170م).

إن حالة التمرد والعصيان التي كان يمارسها المسلمون في بلاد الشام ضد الوجود الفرنجة كانت كفيلة بزعزعة الأمن والاستقرار للصليبين، الأمر الذي أقض مضاجعهم منذ وصولهم إلى بلاد الشام واحتلالهم للقدس عام (1099م).

---

(1) Prawer, J, Histoire du royaume latinde Jrusalem, paris, 1969, t.1. p.293-294

(2) فوشي الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص: 136.

(3) محمود، العلاقات الاقتصادية، ص: 193.

(4) أبو شامة، الروضتين (2/ 88)

(5) بهيني، الجيش الأيوبي، ص: 22.

(6) المرجع نفسه، ص: 23.

(7) Sivan, E, "RFugi s Syro – Pales tiniens au temps des crosades", R. E. I, XXXV, 1967. P137.

حيث تشير المصادر التاريخية الغربية إلى انعدام الأمن على الطرق المؤدية إلى القدس، فقد إرتاع (سيولف seawulf)، وهو من الحجاج الإنجليز الشماليين، لما لاقاه من الأخطار في رحلته في فلسطين إلى القدس سنة (1102م/ 495هـ)، فيذكر أن الطريق من يافا إلى بيت المقدس كانت خطرة بسبب من سماهم بقطاع الطريق، وهم السكان المحليين الذين كانوا يتخذون من المغاور والكهوف الجلية كمائن لهم يترقبون فيها ليل نهار وصول كل من يصل من الغرب الأوروبي، ويستطرد قائلاً : "أنه نتيجة لغاراتهم المفاجئة والمتكررة، فإنك ترى كثيراً من الجثث الآدمية مبعثرة على طول الطريق بعد أن مزقتها الحيوانات المفترسة، وقد يتعجب البعض لعدم دفن جثث أبناء الغرب الأوروبي هؤلاء، لكن سرعان ما يزول العجب عندما يدرك أن الصخور الصلبة لم تترك مجالاً لوجود أرض ترابية يمكن حفر مدافق فيها، وحتى لو وجدت تلك الأراضي فمن الذي سيجازف بترك الجماعة ليحفر قبراً لرفيق له، فلو فعل ذلك فإن عليه أن يحفر قبراً آخر لنفسه"(1).

أما الراهب الروسي (دانيال Daniel) الذي زار القدس سنة (1106م)، كتب في رسالة له أن الأمن مفقود على الطريق بين أريحا والقدس، إذا كان يرابط على هذا الطريق ما سماهم قطاع الطرق، وأضاف أن أماكن مقدسة كثيرة كان يستحيل الوصول إليها(2).

إن حالة التمرد هذه سهلت اندماج السكان المحليين من مسلمين ومسيحيين في أعمال التجسس التي كانت تحتاج إليها الدولة السلجوقية ومن ثم الزنكية والأيوبية، الأمر الذي أصبح يشكل خطراً داهماً على الفرنجة.

فقد زار طوروس الثاني حاكم قيلقيا الأرمنية مملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول (558هـ / 1163 –/ 569هـ/1147م)، وعندما تقابلا قال طوروس للملك عموري بحسب ما ورد في المصادر التاريخية على لسان مدون الأخبار السوري أرنول: "في جميع مدن بلادك يعيش مسلمون يعرفون جميع السبل والأسرار، وا ٍذا ما اقتحمتها العساكر الإسلامية، ذات يوم، فإنها ستستفيد من مساعدة ونصيحة الناس البسطاء في البلاد، الذين سيساعدون المسلمين بالمأكولات وبقواتهم بالذات، وا ٍذا ما حدث ومني المسلمين بالهزيمة فإن رجالك بالذات (أي المسلمون) سيخفونهم في أماكن موثوقة وا ٍذا ما انتصروا عليكم، فإنهم سيتسببون لكم بكل شر"(3).

لذلك سعى الفرنجة إلى محاربة الطرق الخاصة بالأماكن المقدسة للمسيحين من خلال إنشاء الحصون والقلاع على هذه الطرق، كما أنشأوا فرقتين عسكريتين للحد من نشاط السكان المحليين الذي كانوا يسمونهم قطاع الطرق.

---

(1) Wright, Thomas, The Travels of seawulf A D 1100 and 1103, in Early Travels in Palestine, London, 1841, P. 36. منقول عن عبد المجيد بهيني، ص20

(2) العارف، المفصل، ص: 159.

(3) زابروف، الفرنجة، ص: 138.

فقد تم إنشاء فرقة الداوية العسكرية(1) سنة (602هـ/1118م)، ثم فرقة الإسبتارية(2) التي تحولت بدورها من فرقة طبية إغاثية إلى فرقة عسكرية، "وكان هدف المؤسستين والقسم الذي يؤديه أفرادهما يقوم على حماية الحجاج وتطهير الطريق إلى بيت المقدس من قطاع الطرق، كما تمكنت الطائفتان من امتلاك قلاع وحصون كثيرة في مناطق متناثرة من مملكة بيت المقدس، وفي الإمارات الأخرى"(3).

حيث قامت بالدور الذي أوكل إليها والمتمثل بحماية الحجاج والتجار في مختلف الطرق التي كانت تربط الإمارات بعضها البعض.

يتضح لنا مما سبق أن السكان المحليين من مسلمين ومسيحيين في بلاد الشام عموماً وفي فلسطين على وجه التحديد لم يقبلوا الوجود الفرنجة، وسعوا إلى مواجهته بكل السبل الممكنة، وقد ضربوا أروع الأمثلة في البطولة والشجاعة والفداء، كما شكلوا جبهة داخلية مساندة للحملات الجهادية التي كانت تنظمها القوى الإسلامية المجاورة بين الفينة والأخرى، وأن هذه المقاومة نهجت أساليب واستعملت وسائل اختلفت وتنوعت بشكلٍ يتماشى والظروف العامة لكل فترة زمنية، مراعية المستجدات التي قد تطرأ على مسرح الصراع.

وكان من أبرز الوسائل التي عمل بها السكان المحليون (المسلمون، والمسيحيون) العمل كعيون وجواسيس على الفرنجة لصالح القوى الإسلامية المجاهدة.

3. استخدام المدنيين في الحصول على المعلومات.

أ- السفارات:

درجت العادة بين المسلمين و الفرنجة في أثناء فترة صراعهم الطويل في بلاد الشام ومصر على إرسال السفارات، فيما بينهم من أجل نقل الرسائل بين القادة والملوك، وقد حاول الفرنجة استخدام هذا الأسلوب من أجل الحصول على معلومات تفصيلية عن أحوال المسلمين ومقدارتهم الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، وذلك من خلال تكرار ذهاب ورواح السفارات بدون مبرر(4).

وقد استخدم هذا الأسلوب ريتشارد قلب الأسد ليجمع أكبر قدر من المعلومات عن صلاح الدين وجيشه، إلا أن فطنة صلاح الدين حالت دون ذلك.

---

(1) **الداوية:** لفظة عربية، وهي تحريف لكلمة سريانية بمعنى فقير، واسم هذه المنظمة في اللاتينية (Paupere commititiones chrigti)، أي فرسان المسيح الفقراء. (فيليب حتى، تاريخ العرب مطول، ص: 734).

(2) **الإسبتارية:** تسمة عربية محرفة عن لفظة (Hospitaliers) والتي تعني فرسان المستشفى، أسسها بعض التجار من مدينة أمالطي الإيطالية سنة (1070م) كجمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بفقراء الحجاج الأوروبيين، ثم دخل هؤلاء تحت النظام الديري البندكتي، المعروف في غرب أوروبا، وصاروا يتبعون البابا في روما مباشرة، وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصارها، قدم فرسان الاسبتار مساعدات هامة لهم، (سميث، الاسبتارية، ص: 7).

(3) Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge, 1907, p. 136 et 147. منقول عن بهيني، ص30

(4) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص: 222، 224، 525، 538.

فقد " تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته منها أن ملك الإنكليتر طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أياماً ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر أنها قد ضعفت وتغيرت، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ففهم أنهمحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ثم نفذ أسيراً مغربياً عنده فأطلقه السلطان ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل إليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تغير العزمات وتضييع الأوقات على المسلمين وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد بالزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم حتى إن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً والعدو عدد كثير يتناوبون على قتالهم واشتد ذلك عليهم سابع جمادي الأخرة فركب السلطان بالعسكر الإسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق العدو حتى دخل فيها العسكر"(1).

وقد أدرك صلاح الدين مكر وخبث الفرنجةي **ومبتغاهم من** تردد الرسل فكان هو أيضا يرسل الرسل إلى ملك الإنجليز مستغلا مرضه حيث كانت " رسل الأنكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج (...) فكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل"(2).

ب- التجار:

يعد التجار في هذا العصر، من أهم القنوات التي ازدادت أهمية بفضل ازدياد مساحة الدولة، ولمجاورتها لكثير من الشعوب والدول وبالتالي سيطرتها على أهم الطرق التجارية البرية والبحرية في العالم، ما بين أراضي القلب، التي تمثلها الدولة الإسلامية، وما بين الجنوب وجنوب شرق آسيا وأراضي الدولة البيزنطية، والمناطق الأوروبية فضلاً عن حرية العمل التي سمح بها النظام الدولي الذي كان قائماً آنذاك للتجار والتي سمحت بموجبها ببقاء الاتصالات التجارية قائمة برغم حالة العداء التي كانت قائمة في أغلب الأحيان(3).

لذلك كانت ثغور المسلمين التي كانت تقام على منافذ الحدود المشتركة مع دار الحرب، تحاول أن تتأكد من أن التجار الذين يمرون بها لا يحملون معهم مواد تجارية تضر دار الإسلام، أو أنهم يحملون رسائل سرية، فيها معلومات تضر بأمن دار الإسلام وسلامته، ويلاحظ في الوقت نفسه أن الدولة الإسلامية كانت تعمل على حماية حقوق التجار، ودعمهم بصورة مستمر ة ليس من أجل المصالح التجارية فحسب بل والمصالح السياسية، والعسكرية، والأمنية أيضاً (4).

---

(1) أبو شامة، الروضتين (4/ 254)

(2) ابن شداد، النوادر ، ص: 343؛ أبو شامة، المصدر السابق (4/ 324)

(3) أبو يوسف، الخراج، ص: 374 – 375.

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ص: 534. (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، المتوفى سنة 279هـ)

إن مما ساعد التجار على العمل عيوناً، وجواسيس ً ، في الدول والمناطق التي كانوا يتاجرون فيها كونهم متخفين بثياب التجار، بل وأن بعض العمليات الخاصة التي نفذت ضد العدو البيزنطي في ذلك العصر نفذت من خلال عيون تخفوا بثياب التجار(1).

كما أن مما أوجب على الدولة أن تعتمد على هذه القناة، هو لجوء كثير من التنظيمات لسياسية المعارضة إلى العمل من خلال مهنة التجارة، فضلاً عن أهميتها لأغراض التمويل الضرورية جداً وكان لا بد لجهاز العيون، والجواسيس من متابعة هؤلاء من خلال الأسلوب نفسه(2).

لذلك سعى جهاز العيون والجواسيس في العهدين الزنكي والأيوبي إلى تجنيد الجواسيس ونشرهم على أنهم تجار، حيث يّجب بث العيون في كل الأطراف دائماً في زي تجار وسياح ومتصوفة وبائعي أدوية وِدراويش لنقل كل ما يسمعون من أخبار حتى لا يظل ثمة شيئاً خافياً، وحتى يمكن تلاقي أي طارئ جديد في حينه فما أكثر ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والأمراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً لكن الجواسيس كانوا يكتشفون ذلك ويخبرون الملك به فيركب من وقته وينقض عليهم بغتة فيحيق بهم ويحبط مآربهم ومقاصدهم، وكانوا إذا ما عرفوا بأن ملكاً ما أو جيشاً أجنبياً ينوي الهجوم على المملكة يخبرون الملك فيأخذ للأمر أهميته، ويدفعه وكانوا ينهون أخبار الرعية خيرها وشرها "(3).

لقد استعانت وحدة البريد بكل ما من شأنه أن يجمع لها المعلومات الدقيقة والرعية عن العدو، لنقلها إلى الجيش السلطاني، ومن العينات التي تم تجنيدها: المستأمنين، والرعاة، والتجار، والرسل، والبدو والأعراب.

كان التجار من هذه الفئة من المسلمين والنصارى يتنقلون في الأمصار بحثاً عن أرزاقهم، لذلك لم يغفل جهاز العيون الزنكي والأيوبي عنهم، وتشير المصادر التاريخية إلى أن المسلمين ربما كانوا يحصلون على المعلومات من التجار وفي ذلك يقول ابن جبير " اختلاف القوافل من مصر ودمشق إلى بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق وعكا كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الآمنة على غاية وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم على الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"(4).

كما ورد في كتابه الكامل في التاريخ عن خبر التجار: "فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق

---

(1) النويري، نهاية الأرب (6/ 185 – 187)

(2) الطبري، تاريخ (6/ 260-406)

(3) ناصر خسرو، سفر نامة (1/ 111)

(4) ابن جبير، الرحلة (1/ 801)

وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشن الغارات بأطراف بلادهم وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادي عشر صفر من السنة ودور التجار في الخبر "(1).

كذلك ساهم "الباعة من المسلمين" القادمين من القرى المجاورة ولا يحملون السلاح، بل يحملون فاكهة أو لحماً يبيعونه للمعسكر الفرنجة، في نقل المعلومات الدقيقة إلى معسكر الجيش الإسلامي المحاصر للصليبيين المحاصرين لمدينة عكا[2].

ج- الرعاة والفلاحون:

كان للرعاة دور كبير في سرعة نقل الأخبار عن العدو، وأماكن تواجدهم وأعدادهم، وقد استعان الزنكيون والأيوبيون بهم كثيراً، وكان لهم دور مؤثر في حفظ أعراض المسلمين وعدم وقوعهم في كمائن الأعداء، ولعل أبرز ما يؤكد ذلك – كما أسلفنا – هو ما حدث في سنة 575هـ/1179م قبيل اندلاع معركة مرج عيون والسلطان مخيم بتل القاضي في بانياس فبينما هو على تلك الحال وقد قرر ترك المنطقة شاهد أبقاراً وأغناما جافلة عن موضعها "وجاءه بعض الرعاة وأخبر أنَّه شاهد عسكر العداة"[3] الفرنجةولكنَّ السلطان استبعد ذلك قائلاً: "لو كان ذلك صحيحاً لجاءنا الجاسوس"[4].

وما فعله السلطان يدلل على أن الجهات الرسمية لم تكن تأخذ بكل المعلومات الإستخبارية التي تردها تباعا من المجتمع المسلم، فانتشار الجواسيس جعل صلاح الدين لا يعبأ بهذا الخبر حتى يتم التأكد من صحته من الجاسوس الرسمي الذي تم زرعه في صفوف الفرنجة، خشية أن يكون هذا الراعي ممن يعمل لحساب الفرنجة، بمعنى أنه عميل مزدوج هدف الفرنجة من خلاله للإيقاع بالجيش الإسلامي.

ويبدو أنه في حالة عدم وجود جاسوس من الجهة الرسمية كان يتم الأخذ بالمعلومات التي يقدمها الأهالي من الرعاة والفلاحين وغيرهم، مع الحذر الشديد من تلك المعلومات، خشية عدم صحتها، أو أن تكون مجرد إشاعة.

كما حدث عندما "نزل السلطان على تل القاضي ببانياس على المرج الذي يعرف بمرج العيون، (...)فوصل بعض الرعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة،

---

(1) ابن الأثير، الكامل (10/ 110)

([2]) ابن شداد، النوادر، ص: 343. أبو شامة، الروضتين (4/ 324).

([3]) البنداري، سنا البرق، ص: 164.

([4]) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 220؛ ابن الأثير، الكامل (10/ 95)؛ وروايته المنقولة من ابن أبي طي لم تشر إلى وجود الجاسوس بل أكدت بأنه "وصل بعض الرعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتعلقة، فسار- أي السلطان- حتى أشرف على الفرنج". انظر: السبكي، طباقت الشافعية (366/7).

فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رمح فأخذتهم السيوف والدبابيس حتى فر شت الأرض منهم وألقى جماعة منهم سلاحهم وسلموا أنفسهم أسرى ونجا ملك الفرنج هنفري هارباً "(1).

كما لعب الفلاحون دورا مهما في رصد تحركات العدو ونقل المعلومات عنهم، فيروي ابن منقذ[2] "أن فلاحاً ...جاء يركض إلى أبي وعمي، رحمه الله، قال: شاهدت سرية إفرنج تائهين قد جاءوا من البرية، لو خرجتم أليهم أخذتموهم" وهنا حشد أبو أسامة وعمه عساكرهم وقاموا بمهاجمة السرية التائهة وجرت بينهم معركة على نطاق ضيق كانت نتيجتها لصالح الفرنجة في البداية، وما لبثت أن تحولت لصالح المسلمين[3].

ويتضح مما سبق سعي الأهالي الدائم رعاتهم وفلاحيهم للتخلص من الاحتلال الفرنجة، فهذا الفلاح المتضرر من الفرنجة لا يملك أن يطردهم بمفرده، ولأنَّه حريص على التخلص من ظلمهم فقد صرف جهده لمعرفة المعلومات التي تتعلق بهم، ورصد تحركاتهم ونقل كل ذلك إلى من هو أقدر منه، فما أن تأكد من معلوماته حتى أسرع وهو يركض خشية أن تفلت تلك السرية من المسلمين، إلى حكام منطقته من بني منقذ وقال لهم بثقة بالغة "لو خرجتم اليهم أخذتموهم"وكان الرد بالإيجاب ولعلَّ هذا الرد قد أدخل السرور والفرح إلى نفس هذا الفلاح الذي استطاع أن يفعل شيئاً ولو بسيطاً في سبيل مقاومة الاحتلال الفرنجة.

والواضح أن خروج الحكام بناء على المعلومات التي كان يقدمها الأهالي من أفراد المقاومة الشعبية دليل مؤكد على ثقة هؤلاء الحكام المسلمين من تلك الأخبار التي يتم نقلها، لأنهم يعلمون علم اليقين من أن تلك المعلومات صادقة ومؤكدة لأنها جاءت من واقع المعاناة التي يعيشها أهل الأرض المحتلة تحت نير المحتل الفرنجةكما ويدلل خروج حكام المسلمين بناءً على تلك المعلومات أيضاً أنَّهم استفوا منها ونجحوا في استثمارها لصالح الخطط العسكرية التي كان يتم وضعها بناءً على ما يقدمه الجواسيس من معلومات[4].

د- الأدلاء:

لم تدخر الدولة الإسلامية في العهدين الزنكي والأيوبي وسيلة للحصول على المعلومات من كل مصدر متاح، ومن الوسائل التي استخدمتها، الأدلاء، لما لهم من أهمية، فقد كانت البلاد متداخلة بين المسلمين والإفرنج، والطرق صعبة ويخشى منها فقدان الاتجاه، ومن ثم الوقوع في أيدي الأعداء،

(1) أبو شامة، الروضتين (3/ 34)

([2]) ابن منقذ، الاعتبار (65/1).

([3]) الفراني، المقاومة، ص: 401.

([4]) ابن منقذ، الاعتبار (65/1).

لذلك كان الأدلاء جزءاً أصيلاً من الجهاز الاستخباري مهمتهم تحدد في تيسير سبيل القوات لسلك أفضل الطرق وأكثرها أمناً (1).

وفي حادثة أخرى يرويها ابن منقذ أيضاً حول الاستعانة بالأدلاء في المسير، ووجودهم بشكلٍ دائم مع القوافل والجنود، فيقول: "ولا ندري كيف مضوا فقلت نستعين بالله تعالى ونسير على النوء فسرنا ونحن قد أشرفنا من انفرادنا عن الجمال في البرية على أمرٍ صعب، وفي الأدلاء رجل يقال له جزية فيه يقظة وفطنة، فلما استبطأنا علم أنا قد تُهنا عنهم، فأخرج قداحة وجعل يقدح وهو على الجمل، والشرار من الزند يتفرق كذا وكذا فرأيناه على البعد فقصدنا النار حتى لحقناهم، ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا"(2).

لقد حدد جهاز العيون الأيوبي دور الأدلاء في إرشاد القوات والجيوش الإسلامية للطريق حتى لا يضلواويقعوا في شراك الإفرنج خصوصاً في حال التنقل بأعداد قليلة، وكذلك القوافل التجارية.

وقد جاء هذا الحذر من الأدلاء على لا يصبحوا خطراً على تلك القوافل عندما يعلمون أن بها أموالاً وخيرات، يمكن أن يطمعون بها، وبالتالي قد يغدوا هم بالقافلة خصوصاً وأن التجارب كثيرة في هذا المجال، سيما وأن أغلب هؤلاء والأدلاء من الأعراب(3).

هـ- العوامون (السباحين):

لم يغفل صلاح الدين أي وسيلة لاستخدامها في نقل المعلومات لأجناده في كل مكان وخصوصاً المحاصرين منهم، وقد حدث في حصار عكا أن اشتد على أهلها الحصار، ولم يستطع أن ينفذ إليهم المال والعتاد ليقويهم على الصمود، فما كان من طريقة إلا استخدام السباحين للوصول إليهم عن طريق البحر، والدخول إلى عكا، ونقل الأموال والذخائر إليهم.

وكان صلاح الدين رحمه الله قد وضع من النصارى من هم معاونيه، إلا أن هؤلاء المعاونين لم يكن جميعهم مخلصين الأمر الذي انعكس سلباً على أداء الجيش الإسلامي، ومن ثم لم يجد بد إلا أن يمارس كل الأساليب للتواصل مع أجناده والتغلب على هذه المشكلة(4).

فمع اشتداد الحصار على مدينة عكا من البر، كان البحر السبيل الوحيد للوصول للمحاصرين لإيصال الرسائل والمعلومات من القيادة، فقد كان الحصار شديدا " وانقطع الطريق إلا من سابح يأتي بكتاب"(5).

---

(1) ابن منقذ، الاعتبار (1/ 3)

(2) ابن منقذ، الاعتبار (1/ 4)

(3) المصدر نفسه.

(4) ابن الأثير، الكامل (10/ 198)

(5) المصدر نفسه.

وكانت تتواتر الأخبار إلى السلطان عن طريق العوامين– السباحين– الذين كانوا يخترقون الحصار البحري للعدو سباحة، وهم يحملون الكتب ونفقات الجند، ويعومون بالكتب المدونة بترجمة مصطلح عليها – أي مكتوبة بالشيفرة – خوفا من وقوعها في أيدي الأعداء[1]وعندما تعذر الاتِّصال بين أهل عكا وحاميتها، وبين صلاح الدين عام 586هـ/1190م، أنفذ إليهم "عواماً مسلماً كان يقال له عيسى .. بالكتب فقللت على وسطه ليلاً على غرّة من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو"[2]، وفي إحدى الليالي أرسله صلاح الدين وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف ألف دينار، فعام في البحر، ثم انقطعت أخباره،وبعد أيام وجد عيسى العوام ميتاً غريقاً على طرف البحر وعلى وسطه أكياس من النقود[3].

4. الأساليب العسكرية.

لم تغفل الدولة الإسلامية استخدام الأساليب العسكرية للحصول على المعلومات أو حتى نقلها إلى أصحابها المحاصرين، وتوفير الحماية لهم.

ومن هذه الأساليب قطع الأشجار، واستخدام الأسلحة الكيماوية، والسهام وقد ذكرت المصادر التاريخية هذه الأساليب من خلال الوقائع التي كانت تحدث مع المسلمين، وفيما يلي التفصيل:

أ- استخدام المواد الكيمائية:

كانت للوسائل الحربية دوراً فعال في للمعارك التي كانت تدور بين المسلمين و الفرنجة، وقد كان التقدم حليفاً للصليبين، فقد صنع الفرنجةبرجاً عظيماً يجره المقاتلون، ويعلو فوقه أكثر من خمسة ألاف مقاتل وهو مصنوع من الخشب والجلد، ولم يتمكن جيش صلاح الدين من إيقاف هذا البرج المتحرك الذي يشكل تهديداً لهم، وسيستطيعون من خلاله الدخول إلى حصون المسلمين، فما كان من صلاح الدين إلا أن استنفر جواسيسه وعيونه، للبحث عن مختصين يستطيعون إحراق هذا البرج العظيم، ومن ثم تحقيق النصر على الفرنجة، فوقع الاختيار على " شاب نحاس دمشقي له صناعة في إحراقها وأنه إن مُكن من الدخول إلى عكا وحصلت له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ما طلبه ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط في قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقعت فيه فاشتعل من ساعته ووقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرج حتى كادت عقولهم تذهب وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعلت كالتي قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعقدت الأصوات إلى السماء وما كان إلا

([1]) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 367. أبو شامة، الروضتين (4/ 118– 149).

([2]) ابن شداد، النوادر، ص: 120؛ أبو شامة، الروضتين (4/ 160)

([3]) ابن شداد، النوادر، ص: 120؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 423. أبو شامة، الروضتين(4/ 160)

ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشي الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوي الأحلام والنهى منهم حركة الشباب الرعنا "(1).

ب- قطع الأشجار، ومنع المياه عن الأعداء:

سياسة قطع الأشجار من الأساليب الإستخبارية العسكرية التي استخدمها المسلمون على مر العصور ضد أعدائهم. وكان النبي ﷺ قد استخدم هذه السياسة ضد اليهود، أثناء غزوة بني قينقاع وقد كان ذلك مستهجناً من قبل اليهود على اعتبار أن الأنبياء لا يقطعون الشجر المثمر، فنزل قول الله **مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ "أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ** "(2)، وكذلك كان الحال في بدر الكبرى عندما منع النبي ﷺ الماء عن قريش عندما ردم آبار مياه بدر.

ج- استخدام السهام في نقل المعلومات:

في أثناء حصار حصن عكا أمد استخدم صلاح السهام كوسيلة نقل من خلالها الأخبار لأهل الحصن بأنه لا يريد قتالاً إذا سلموا الحصن ونزلوا عند أمره، وفي الوقت نفسه كان يحرضهم على صاحب الحصن ابن نيسان، وقد نجح في هذا الأسلوب بشكلٍ كبير و استطاع أن يفتح الحصن بكل سهولة.

فعندما عزم صلاح الدين على السيطرة على آمد " سنة تسع وسبعين وخمسمائة أمر أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ويتهددهم إن قاتلوه فزادهم ذلك تقاعداً وتخاذلاً وأحبوا ملكة وتركوا القتال فوصل النقابون إلى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلاد من الأموال والذخائر فسعى له الفاضل في ذلك"(3).

د- استخدام المداراةو التمويه([4]):

هو أحد الأساليب العسكرية التي كانت تستخدمها وقد برع عماد الدين في استخدامها، فعندما قرر عماد مهاجمة الرها عام (1144م/ 539هـ) بهدف الاستيلاء عليها، لجأ إلى خدعة الهجوم التمويهي؛ لعلمه أن الرها حصينة، وأن الفرنجة متى علموا أنه خرج لحصارها اجتمعوا فلم يتحقق له ما

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 49.

(2) القرآن الكريم، الحشر، الآية: 5.

(3) ابن الأثير، الكامل (10/ 119)

([4]) **الهجوم التمويهي:**ومعناه أن يهاجم الجيش مكاناً ما؛ لتحويل أنظار الطرف الآخر عن مكان الهجوم الرئيسي، قبل الانتقال -في سرعة وسرية- إلى الهدف الرئيسي.(ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص: 324-325).

أراد (1)، فتظاهر زنكي بالخروج لمهاجمة الأراتقة في ديار بكر، ليغري حاكمها جوسلين الثاني بالخروج منها (2).

وبث عماد الدين زنكي عيونه ليرصدوا تحركات جوسلين؛ فلما اطمأن جوسلين خرج من الرها إلى تل باشر بجيشه؛ فخلت المدينة ممن يحميها، وأخبرت العيون عماد الدين زنكي بهذا؛ فجمع قواته وسار مسرعاً إلى الرها، وشدد عليه الحصار (3)، كما أحسن استغلال الظواهر الطبيعية، وأن الريح شمالية، فأمر بإشعال النار في أخشاب كثيرة ضخمة جعلها إلى جانب سور الرها، وبالفعل اتجه الدخان المنبعث من الأخشاب المحترقة بكثافة صوب المدينة، فلم تستطع حاميتها مزيداً من الدفاع عنها، واستطاع زنكي الإستيلاء عليها، في الثالث والعشرين من ديسمبر (1144م، السادس والعشرين من جمادي الآخرة، 539هـ)(4). وما كان من جوسلين إلا أن تآمر مع عدد من أرمن الرها عام (1146م/540هـ) لقتل من بها من المسلمين والتخلص من الحامية التي تركها عماد الدين زنكي في المدينة، لإعادة جوسلين إلى حكمها (5)، لكن عماد الدين علم بتآمر الأرمن، فأسرع إلى المدينة وأعدم المتآمرين، كما طرد جزءاً من أرمن الرها، وأحل محلهم ثلاثمائة أسرة يهودية لأنهم ألد أعداء المسيحيين عموماً (6). ولما مات عماد الدين زنكي عام (1146م/ 541هـ)، حاول جوسلين أن يستغل هذه الفرصة في استعادة إمارته؛ فراسل الأرمن في الرها، ووعدوه بالمساعدة (7).

وتمكن من دخول المدينة بالفعل، لكنه فشل في اقتحام قلعتها، وتمكن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي من أن ينزل به وبقواته هزيمة ساحقة (8).

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب (1/ 93-94)

(2) ابن العديم، تاريخ حلب، ص: 324-325.

(3) ابن الأثير، الكامل (9/ 131-132)

(4) وليم الصوري، الحروب الصليبية (3/ 235-240)

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 282.

(6) ابن العديم، تاريخ حلب، ص: 326.

(7) وليم الصوري، الحروب الصليبية (3/ 259-262)

(8) ابن الأثير، الباهر، ص: 86-87.

الفصل الرابع

دور العيون والجواسيس في الصراع الإسلامي الفرنجة في العهدين الزنكي والأيوبي

كـان للعيـون والجواسـيس دوراً مـؤثراً فـي الـصراع الإسـلامي الفرنجـة فـي العهـدين الزنكـي والأيوبي، وقد تعددت هذه الأدوار لتشمل كل أشكال الصراع السياسية والعسكرية، والنفسية من أجل تحطيم الروح المعنوية للأعداء، كما كان لها دور مؤثر في مواجهة الأنشطة التجسسية المضادة، فلم تكن العيون مكتوفة الأيدي، بل مارست واستخدمت كل الأساليب والوسائل العادية والقذرة في سبيل التأثير على المجتمع الإسلامي.

أما الدور الأهم والأبرز فكان في العمليات الحربية وتوجيه المعارك، وخصوصاً التوجيه الجيد الذي تم في معركة حطين، والذي أدى إلى تحقيق الانتصار الحاسم على الفرنجة، ومن ثم القضاء على ممالكهم وا ٍماراتهم في بلاد الشام. وفيما يلي استعراض لأهم تلك الأدوار:

أولاً : دور العيون والجواسيس في المعارك والأعمال العسكرية.

1. حصار الحصون والقلاع:

إن المتأمل للتذكرة الهروية والتي كتبت في عصر صلاح الدين الأيوبي، يجد معلومات كثيرة تسلط الضوء على الدور الكبير الذي كانت تلعبه العيون الأيوبية في فتح القلاع والحصون حيث ذكر أن على القائد المحاصر أن يكون على اطلاع جيد بوساطة جواسيسه بأوضاع البلد المحاصر من حيث كمية الذخائر الموجودة عندهم، أو مقدار الأسلحة التي في حوزة المدافعين، وعدد المقاتلين فيها، وكيفية حصول أهل المدينة على الماء، وعلى القائد مكاتبة أهل الحصن ومقدميه، ويضمن لهم ما يطلبونه، وليظهر لهم أن بعضهم يكاتبونه ويريدونه ولا يعين أحداً منهم، وليترك الأمر مكتوماً، فيظن كل واحد منهم في صاحبه(1).

أما عن أساليب العيون الأيوبية في دعم القلاع والحصون والمدن المحاصرة من قبل الفرنجة فكانت تدعو إلى الإعجاب، فعندما اشتد الحصار الفرنجة لمدينة عكا، وضاقت المؤن على المحاصرين، استطاعت العيون الأيوبية في العشر الأواخر من رجب عام (586هـ/1190م) إغاثة المدينة بطريقة في غاية الذكاء، فقد جهزت سفينة كبيرة في بيروت شحنتها بالأقوات وطلبت من رجالها الذين رافقوا السفينة بأن يلبسوا لباس الفرنجة، وبأن يحلقوا لحاهم، ويضعوا الصلبان في أعناقهم، ويظهروا خنازير على سطح السفينة، وبهذه الحيلة تمكنت هذه السفينة من العبور من وسط سفن الفرنجة دون أن يشكوا فيها، حيث تمكنت من إيصال المؤن للمدينة المحاصرة (2).

لقد بذلت العيون الأيوبية جهوداً مضنية من أجل الحيلولة دون سقوط مدينة عكا بأيدي الفرنجة، ولعل أروع ما تفتقت عنه عقلية العيون أنها تمكنت من الاستفادة من طاقات أحد الشبان في تحضير محلول كيماوي تمكنت العيون الأيوبية عن طريقه من تدمير ثلاثة أبراج كانت تضايق

(1) الهروي، التذكرة الهروية، منقول عن البهيني، ص: 23-25.

(2) أبو شامة، الروضتين (4/ 153)

المدينـة، وتفصيل الأمر أن الفرنجـة صـنعوا ثلاثـة أبـراج مـن خشب وحديـد ثـم ألبسوها الجلـود المسقاه بالخـل، يسع الواحد منها ما يزيد على خمسمائة نفر من المقاتلين، حتى أنها استعصت على كل الوسائل المعروفة لتدميرها، عندها تطوع شاب نحاس اسمه على ابن شيخ النحاسين يعود في أصوله إلى مدينة دمشق، حيث تمكن من مزج بعض المواد الكيماوية والتي تم قذفها على الأبراج حيث تمكن من إشعال النيران فيها وتدميرها وتخليص المدينة من شرها مما رفع من معنويات المسلمين المحاصرين(1)، كذلك يجب أن لا ننسى ما قام به عيسى العوام من دور مشرف في نقل الرسائل والأموال للقوات الأيوبية المحاصرة في عكا – كما أسلفنا(2).

2.تدمير الأسلحة الخطير ة للعدو:

كان من مهام العيون الأيوبية متابعة ما يستجد من صناعات متطورة عند الفرنجة والعمل على تدميرها قبل دخولها إلى الخدمة الفعلية، ومن المهام الناجحة التي قامت بها في هذا المجال تدمير منجنيق عملاق أنفقت عليه مبالغ كبيرة، فبعد أن رفعت العيون الأيوبية تقريراً إلى صلاح الدين الأيوبي يفيد بأن الفرنجة أنجزوا صناعة منجنيق كبير تكلف ألفاً وخمسمائة دينار من أجل استخدامه في حصار عكا، وعلى ضوء هذا التقرير أمر صلاح الدين مجموعة من قواته الخاصة لتدميره، فأحرقوه وحرموا الفرنجة من استخدامه(3).

3. توجيه المعارك العسكرية:

أ. معركة مرج عيون (575هـ/1179م):

تعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة في تاريخ الحروب ، إذ تمكن صلاح الدين الأيوبي عن طريق عيونه وجواسيسه من رصد تحركات الفرنجة ومتابعة حشودهم وتحركاتهم ساعة بساعة، حيث تمكن من مباغتتهم قبل أن يكمل الملك بلدوين وبقية القادة الفرنجة من استكمال استعداداتهم، حيث هزموا هزيمة نكراء وأسر مائتان ونيف وسبعون من زعمائهم منهم: صاحب طبرية، وصاحب الرملة، وصاحب جنين، وصاحب نابلس وغيرهم، مما رفع من معنويات المسلمين، وتدمير الروح المعنوية للصليبيين لسقوط هذا العدد الضخم من القادة في الأسر(4).

([1]) ابن شداد، النوادر، ص: 140–141.

([2]) أبو شامة، الروضتين، ص: 160.

([3]) ابن شداد، النوادر، ص: 161.

([4]) ابن الأثير، الكامل (10/ 95)

ب. معركة بيسان (579هـ/1183م):

فقبل هذه المعركة وصلت تقارير العيون الأيوبية التي توضح بشكل مفصل، عدد قوات العدو، ونوعية الأسلحة التي يحملها، وأسماء قادة الجيش، ومن بين تلك المعلومات؛ معلومات تجسسية تفيد بأن الأمير ابن هنفري هو الذي يتولى القيادة العامة للصليبيين ومعه ألف وخمسمائة فارس فضلاً عن ألف وخمسمائة رمح(1)، إلى جانب حشد خمسة عشر ألف رجل ما بين طاعن وضارب وناشب ونابل، كل هذه المعلومات جعلت القيادة الأيوبية على بصيرة من أمر عدوها فوضعت خططها على بينة، فأوقعت بالعدو وكسب جولات المعركة([2]).

ج. معركة حطين (583هـ/1187م):

تعد هذه المعركة نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الفرنجة إذ شكلت بداية ر جحان كفة المسلمين، وهو تحول كان للعيون الأيوبية دور كبير فيه، فقد استطاع صلاح الدين الأيوبي قبل فترة من موقعة حطين من الكشف عن الكثير من نقاط القوة والضعف في الجيش الفرنجة، حيث كانت العيون الأيوبية تزود قيادتها بتحركات ونوايا الفرنجةأولاً بأول قبل نشوب المعركة، كما تمكنت العيون الأيوبية من استدراج القوات إلى السهل الذي حددته القيادة الأيوبية للاشتباك مع العدو، مما حقق النصر المؤزر الذي توج بتحرير مدينة القدس من الاحتلال الفرنجة بعد احتلال دام إحدى وتسعين عاماً (3).

فبعد إقدام أرناط حاكم حصن الكرك الفرنجة على مهاجمة القافلة الإسلامية المتجهة من القاهرة إلى دمشق، والتي كانت تحمل الكثير من النفائس، غضب صلاح الدين غضباً شديداً من فعل ذلك الأمير اللص الذي لم يحترم اتفاقية الهدنة الموقعة بين المسلمين و الفرنجة(4)، فقرر مهاجمة حصني الكرك والشوبك، وهو ما تم سنة 583هـ/1187م، وقد لجأ كعادته إلى الحيلة، فأرسل إلى رجاله في حلب يأمرهم بعقد هدنة مع بوهمند الثالث أمير أنطاكية، لكي يتفرغ لقتال عدوٍ واحد؛ فلا يشتت قواته على جبهتين(5).

كما أرسل ابنه الأفضل في التاسع عشر من صفر 583هـ/أول مايو 1187لي ُشغل القوات عن نجدة أرناط، وقد استطاع الأفضل أن ينزل هزيمة ساحقة بفرسان الداوية عند صفورية([6]) مستغلاً

([1]) رينسمان، تاريخ الحروب (2/ 469-470)؛ العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 62.

([2]) أبو شامة، الروضتين (2/ 50)

([3]) ابن شداد، النوادر، ص: 85.

([4]) ابن الأثير، الكامل (2/ 184-185)؛ أبو شامة، النوادر (4/ 274)

([5]) ابن شداد، النوادر، ص: 75؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 620.

([6]) **صفورية:** بلدة من نواحي الأردن بالشام قرب طبرية. (البغدادي، مراصد (2/ 485)

حرارة الجو وعدم ملائمته لهم (1)، فقتل من الداوية أكثر من ستين فارساً، أما فرسان الاسبتارية، فلم ينجح منهم سوى عددٌ قليل (2).

لم تستطع القوات تحمل هذه الهزيمة، فحشدت قواتها مرة ثانية في صفورية، من أغلب الممالك المنتشرة في الشام، لجأ صلاح الدين للحيلة، فهاجم طبرية وأحرقها، لكي يستدرج الفرنجة ويجبرهم على المسير إليه، فيصلوا وهم منهكون في أيام الصيف الحارة، في حين يكون هو قد أراح جنوده، ووفر جهدهم، الأمر الذي يسهل عليه القضاء على الجيش الفرنجة في معركة فاصلة كان يتوق إليها (3).

انطلت الحيلة على الفرنجة، ولم يقدروا الموقف حق تقديره، وكأنهم كانوا يسيرون إلى مصيرهم المحتوم، ليفي الله أمراً كان مفعولاً، فمجرد أن علم الفرنجة بما حدث في طبرية، عقدوا اجتماعاً، وقرروا على إثره، التوجه لملاقاة صلاح الدين في ظروف سيئة جداً، فروحهم المعنوية في الحضيض بعد هزيمتين متتاليتين وفي ظل حالة انقسام في الرأي بين قادتهم حول خطورة السير لصلاح الدين في ظل هذه الظروف الصعبة، ولكن الرأي الذي استقر عند غالبيتهم، كان ضرورة السير إلى صلاح الدين، مما اضطر العديد من قادتهم إلى السير مُكرهين، وفي ظل حرارة شهر يوليو بمدينة طبرية ونواحيها، وقلةالماء، ووعورة الطريق، وطوله الذي بلغ ستة عشر ميلاً، كان طبيعياً أن تصل هذه القوات منهكة ومتعبة (4).

ولم يكتفي صلاح الدين بذلك بل تحرك أمامهم نحو خمسة أميال غرب طبرية عند قرية حطين، وهي بلدة غنية بمراعيها ومياهها الوفيرة(5)، فأمر رجاله بإفساد الماء الموجود في الصهاريج، التي في طريق الفرنجة من صفورية إلى طبرية (6).

وصل الفرنجة إلى حطين وهم في حالة سيئة جداً وكانوا في غاية الإنهاك وشدة العطش، ولم يكتفِ صلاح الدين بهذا، بل حال بينهم وبين بحيرة طبرية. وعندما تسللالفرنجة من مواقعهم ليلاً، في محاولة منهم للوصول إلى البحيرة لإطفاء ظمئهم، حصدتهم سيوف المسلمين (7).

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب (2/ 187)

([2]) سميث، الاسبتارية، ص: 67-68.

([3]) أبو شامة، الروضتين (3/ 277-279)؛ ابن شداد، النوادر ، ص: 75-76.

([4]) King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, pp. 125-126.

([5]) ابن شداد، النوادر ، ص: 76؛ ابن واصل، مفرج الكروب (2/ 189)

([6]) Poger of Hovden, The Annals of Roger de Hoveden, 2 Vols, London, 1853, vol.II, p.84.

([7]) ابن الأثير، الكامل (10/ 25)

واستغل الجيش الإسلامي الظواهر الطبيعية(1)، وهبوب الرياح، فأشعل النيران في الأعشاب والشجيرات الجافة التي تغطي المنطقة التي تحيط بالفرنجة، فزاد هذا مزكربهم وضجر هم، ويقول ابن الأثير في ذلك: "وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال..."(2).

وبذلك نجحت حيلة صلاح الدين، فانهارت قوى الصليبين الجسدية وانحطت روحهم المعنوية، وهم يرون مياه بحيرة طبرية أمامهم ولا يستطيعون الوصول إليها، ليردوا ظمأهم، بينما استغل صلاح الدين ستار الليل فأحاطت قواته بالفرنجة. وفي صباح الرابع من يوليو 1187م، الخامس والعشرين من ربيع الآخر 583هـ كان الفرنجة في غاية الإجهاد، وقد أحاط بهم المسلمون من كل جانب، وشددوا من هجماتهم عليهم، فكثر في الفرنجة القتل والجراح، وأصبحوا كقطيع من الأغنام يساق إلى الذبح (3).

وفي خضم هذه المعمعة أدرك ريموند الثالث أمير طرابلس فداحة الكارثة التي جلت بالفرنجة، فبادر بالهرب من ميدان المعركة، وفرت طائفة من الفرنجة بعده، فتتبعهم المسلمون، وحصدوهم، فلم ينج منهم أحد، وسرعان ما قام الجيش الإسلامي بهجوم شامل أنهى به المعركة، بعد أن قتل المسلمون فيه من الفرنجة من قتلوا وأسروا من أسروا (4).

وفي هذا المشهد يروي أبو شامة فيقول: "فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل"(5).

وكان من جملة الأسرى الملك جاي لوزجنان وأرناط، وجير اردودي ريدفورت مقدم فرسان الداوية، وغيرهم كثير(6).

وهكذا كانت معركة حطين كارثة كبرى حلت بالفرنجة؛ أفنت زهرة شبابهم، وأضاعت هيبتهم إلى الأبد، وأصبحت بلاد الشام لأول مرة مفتوحة أمام صلاح الدين ليحررها من قبضة الفرنجة. ولم يكن ذلك ليتحقق لولا عبقرية صلاح الدين، وحسن استخدامه العيون والجواسيس في تضليل الفرنجة، واستخدام الحيل الحربية، وأخذ بكل أسباب القوة والمكر والدهاء، واستغلال كل العوامل في سبيل تحقيق

([1]) الاستفادة من الظواهر الطبيعية في العمليات العسكرية: وهي أن يتم استغلال وجود الأنهار أو البحار أو الجبال، أو زاوية سقوط الشمس، وكذلك الأمطار والرياح وغيرها من عوامل الطقس في الأعمال العسكرية سواءاً كانت بالدفاع أو بالهجوم للتغلب على العدو.(ابن شداد، النوادر، ص: 152- 153)

([2]) أبو شامة، الروضتين (3/ 294-295)

([3]) ابن شداد، النوادر، ص: 76-79.

([4]) مؤرخ مجهول، الحروب الصليبية، ص: 35؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص: 408-409.

([5]) أبو شامة، الروضتين (3/ 284)

([6]) أبو شامة، الروضتين (3/ 284)

الانتصار الحاسم على الفرنجة، الأمر الذي سمح له بالتقدم في شهر أكتوبر سنة 1187م نحو بيت المقدس وتحريرها، ومن ثم أغلب البلاد الشامية ([1]).

ثانياً : دور العيون والجواسيس في حماية الأمن الداخلي.

إن وجود الممالك في قلب بلاد الشام، فضلاً عن تعقد النسيج الاجتماعي والديني والسياسي جعل الولاءات متذبذبة وعمليات الاستقطاب للأفراد والجماعات من قبل الأطراف المتصارعة السمة العامة لعصر الحروب ، مما زاد من مسؤوليات العيون الأيوبية التي أخذت على عاتقها العمل على توحيد الجبهة الداخلية وتحصينها من عمليات الاختراق من قبل الأعداء مما تطلب منها القيام بعدة مهام من أبرزها.

1. مراقبة الرعية وكبار رجالات الدولة:

كانت تم المراقبة ثم ترفع التقارير التفصيلية عن أحوالهم وعلاقاتهم أولا بأول وقد ورث صلاح الدين الأيوبي هذا الاهتمام بسير ولاته وقادته وتتبع أخبارهم العامة والخاصة من نور الدين زنكي الذي كانت له عيون في كل الأمصار يطالعونه بكل صغيرة وكبيرة عما يدور فيها(2)، وفي المقابل كان يغدق الأموال على من يأتيه بتلك الأخبار(3).

إن المتأمل لنصيحة الهروي لأحد أمراء البيت الأيوبي بضرورة بث العيون بين الرعية، يجدها تجسد القلق الذي كان يساور الأمة من تغلغل العيون في المجتمع الإسلامي وضرورة وعي الدولة الأيوبية بهذا الخطر ورصده بكل الوسائل الممكنة يقول الهروي(4): "يجب على السلطان أن يكون له جواسيس قد عرف منهم الثقة والدين والأمانة... ليطالعونه بالأخبار من جميع الأمصار..."، ولعل أبلغ من هذا ما جاء في كتاب نصيحة الملوك لأبي حامد الغزالي (ت505هـ) والذي عاصر احتلال بيت المقدس من قبل الفرنجة، حيث نبه حكام المسلمين منذ فترة مبكرة لأهمية جمع المعلومات عن العدو والصديق على حد سواء في هذه الظروف الصعبة، فقال: "على الملك أن يجعل على الرعية عيوناً ممن يدخلون في طبقاتهم، وجواسيس يتجسسون أخبارهم... كما يفعل ذلك بالمنابذين له من الملوك والنظراء والمجاورين له الأضداد من الأعداء، وفي كل وقت وزمان... فإن ذلك من حكم التدبير وبليغ التقدير وصواب السياسة...."(5).

([1]) سعداوي، التاريخ الحربي، ص: 184.

([2]) ابن الأثير، الباهر، ص: 47.

([3]) ابن الأثير، الباهر، ص: 78.

([4]) الهروي، التذكرة الهروية، ص: 15.

([5]) أبو حامد الغزالي، نصيحة الملوك، ص: 386.

2. شحذ همم الجند:

خاض صلاح الدين حروباً كثيرة مع الفرنجة طوال فترة وجوده في الحكم، وكانت تلك المعارك بين كرٍ وفر، هزيمة وانتصاراً، إلى أن مكن له الله تعالىفي نصرٍ مبين عندما هزم الفرنجة في طبريا في شهر يوليو سنة 1187م، وبعد هذه الهزيمة وأسر ملوك الفرنجة، عم الخبر بلاد الشام ومصر، وأخذ صلاح الدين يتوجه إلى المدن والبلدان الشامية واحدة تلو الأخرى ليفتحها حيث تشير المصادر التاريخية إلى أنه فتح ما يزيد عن خمسين بلداً ذات حصون وجيوش وقلاع. وبعد أن مكنه الله تعالى منها بدأ بمرحلة شحذ الهمم للجند وسكان بلاد الشام ومصر، عندما أذاع خبر نيته التوجه لبيت المقدس لفتحها، سيما وأنها بقيت من آخر البلدان في فلسطين التي لم يتم فتحها بعد ولأنه يدرك أهمية بيت المقدس لدى الفرنجة أيضاً، ويعلم مدى تحصينها وما بها من جيوش، فقد أشاع هذا الخبر بين الجند، الأمر الذي كان له مردوداً إيجابياً، وتوافد عليه الجند والعلماء والصالحون تطوعاً من أجل المشاركة في فتح بيت المقدس، وهذا ما تم بالفعل بأمر الله أولاً في شهر أكتوبر سنة (583هـ/1187م). ([1])

وقد ذكر ابن كثير في البداية و النهاية أهمية دور شحذ الهمم، من أجل إنجاز المهمة الكبرى المتمثلة بفتح بيت المقدس فقال: " ثم إن السلطان أمر جيوشه أن ترتع في هذه الأماكن مدة شهور ليستريحوا وتحمو ا أنفسهم وخيولهم لفتح بيت المقدس وطار في الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس فقصده العلماء والصالحون تطوعاً وجاؤا إليه "([2]).

3. مراقبة الحدود:

لقد أعطت العيونالأيوبية جلّ جهدها لمراقبة الحدود لمنع تسرب الأخبار والجواسيس للأعداء، فضلاً عن السلع والسلاح، وقد نجحت الإجراءاتالصارمة التي فر ضتها العيون الأيوبية في نشر الأمن وا ٍحباط محاولات الفرنجة اختراق الدفاعات الأمنية للدولة الأيوبية، ولعل ما قدمه لنا الرحالة ابن جبير (614هـ/1217م) في رحلته عن مشاهداته للإجراءات الأمنية التي كانت تقوم بها العيون الأيوبية على منافذ البلاد البرية والبحرية ما يثبت دقة هذه الإجراءات وصرامتها عند نزوله في ميناء الإسكندرية في ذي الحجة عام (578هـ/1182م)، حيث قال: " فمن أول ما شهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناص (الدرهم والدينار).ولستُ ترل أحمد ابن حسان منا ليُ سأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقبّ اً (أي تحت الحراسة) على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الدين ثم على جماعة من لحشية السلطان، وفي كلٍ يستفهم ثم يقيد قوله. فخلي سبيله وأمر المسلمون بتتريل

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية (12/ 322)؛ أبو شامة، الروضتين (3/ 332)

([2]) أبو شامة، الروضتين (3/ 332)

أسبابهم فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحدٍ من الأسباب، فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما جلّ ، وأخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها..."(1)، ثم نجده يتعجب من انتشار الأمن في طول البلاد وعرضها فيقول: "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك من الأعذار، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المار عليها من أطوار الناس"(2).

كما كان في قرية الزيب شمالي عكا مجموعة من الجنود المسلمين " يقطعون الطريق على الفرنج"([3]).

4. مراقبة السفراء:

من المؤكد أن كلاً من الأيوبيين و الفرنجة كان على وعي تام بأهداف الدبلوماسية ومهامها المتنوعة، والتي منها تقديم التقارير الأمنية الشاملة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية، والأمنية وحتى المعنوية للبلاد التي يعملون فيها، لذا كانت العيون الأيوبية تحرص كل الحرص على مراقبة السفراء، ومنعهم من الحصول على المعلومات التي يسعون للحصول عليها. ولعل ما سطره المؤرخ الأيوبي ابن شداد (632هـ/1234م) فيه ما يدلل على وعي العيون الأيوبية التام بنوايا الفرنجة وأهدافهم من تكرار إرسال السفراء للمسلمين أثناء العمليات العسكرية، ففي عام (587هـ/1191م) وبالتحديد في جمادي الآخر وأثناء اشتداد الحصار على مدينة عكا، أرسلت القيادة رسلها لإجراء المفاوضات بهدف عقد اتفاقية سلام، بيد أن كلا الطرفين كان يحاول معرفة نوايا الطرف الآخر، والتعرف على الروح المعنوية لدى الخصم(4)، ويؤكد ذلك العماد الأصفهاني(5) حين قال: "كان غرض الفرنج من تكرير الرسالات تفتير العزمات".

ولعل من أنجح عمليات العيون الأيوبية هي تلك التي تم فيها إفشال مؤامرة كبرى نسجت خيوطها في مصر بالتعاون مع ملك بيت المقدس الفرنجة، وملك صقلية النورماني فضلا عن الحشاشين في الشام، والعناصر الناقمة على صلاح الدين من بقايا الحكم الفاطمي أمثال الشاعر عمارة اليمني(6) والقاضي العوريس داعي دعاة الشيعة الإسماعيلية، ومؤتمن الخلافة جوهر بن عبد

([1]) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 135.

([2]) المصدر نفسه، ص:43-44.

([3]) أبو شامة، الروضتين (4/ 244)

([4]) المصدر نفسه (2/ 203)

(5) الأصفهاني، سنا البرق، ص: 503.

([6]) ابن واصل، مفرج الكروب (1/ 251-257)

الله وغيرهم، وكان الهدف من هذه المؤامرة القضاء على صلاح الدين الأيوبي، وا ٍعادة الخلافة الفاطمية من جديد، وكان هذا في عام (569هـ/1174م).

وكانت بداية نجاح العيون الأيوبية في كشف خيوط هذه المؤامرة عندما تمكنت من إلقاء القبض على سفير للمتآمرين أثناء توجهه إلى ملك بيت المقدس، فقد شكت العيون الأيوبية برجلٍ رث الثياب ينتعل حذاءاً جديداً، فقبضوا عليه وفحصوا الحذاء فإذا فيه رسالة تعرض على الفرنجة غزو مصر وتقديم المساعدة لهم، فسُلم السفير والرسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، والذي أمر بدوره بكتمان الخبر حتى يتسنى له كشف بقية عناصر المؤامرة، وبعد التحقيق تبين أن كاتب الرسالة يهودي من الرهط، فاستدعي للتحقيق معه، فاعترف باشتراكه بالمؤامرة، وأنه كتب الرسالة بأمر من مؤتمن الخلافة جوهر بن عبد الله في مصر(1).

ولم يكتف المتآمرون بالاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس لغزو مصر في الوقت الذي يشعلون الثورة في القاهرة وبذلك يقعصلاح الدين بين نارين، وا ٍنما اتصلوا بوليم الثاني النورماني ملك صقلية ليهاجم بأسطوله الإسكندرية في الوقت الذي يداهم الفرنجة مصر من ناحية الشرق، كما ارسلوا سفارة إلى شيخ الجبل مقدم الإسماعيلة يقولون له: "الدعوة واحدة والكلمة جامعة" ويطلبون منه اغتيال صلاح الدين الأيوبي (2).

لقد اختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه في حالة مقتله، كما عينوا الجهاز الحكومي الجديد، وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الأملاك بحيث أصبح كل شيء معد للتنفيذ. إلا أن الذي أفسد هذا العمل المتقن هو يقظة العيون الأيوبية التي كانت ترصد هذه المؤامرة لحظة بلحظة من خلال رجالها الذين تمكنوا من اختراق المتآمرين في مصر وفي بيت المقدس وكان على سبيل المثال عالم التفسير والفقيه والواعظ المشهور زين الدين علي بن نجا (ت 599هـ/1200م) أحد عيون صلاح الدين فقد اكتسب ثقة المتآمرين، وكان ينقل بدوره تفاصيل تلك المؤامرة أولاً بأول، وهذا ما أشار إليه القاضي الفاضل حين قال: "فدسسنا إليهم في طائفتهم من داخلهم فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم" (3).

ومن المدهش أن العيون الأيوبية لم تكن في عجلة من أمرها بل كانت تمتاز بالصبر وطول النفس لتتكشف لها كل خيوط المؤامرة ومن يقف وراءها من العناصر الأجنبية، إذ ما لبث أن جاء سفير عموري الأول ملك بيت المقدس يحمل الهدايا وعبارات الود والتقدير لصلاح الدين في القاهرة راغباً في المهادنة في ظاهر الأمر، ولكنه في الحقيقة جاء ليشرف على الترتيبات النهائية مع المتآمر ين قبل التنفيذ، ولكن العيون الأيوبية وضعته تحت المراقبة المشددة خاصة بعدما جاءت التقارير

---

(1) ابن الأثير، الكامل (10/ 530-543)

(2) أبو شامة، الروضتين (2/ 288)

(3) ابن كثير، البداية والنهاية (12/ 245)

من عملاء العيون الأيوبية في بيت المقدس تؤكد أن السفير الفرنجة (جورج) جاء إلى مصر ليتم مخطط المؤامرة، فأخذ صلاح الدين حذره، وأوكل به من يراقبه من بعض أقباط مصر، وقد شرح صلاح الدين الأيوبي ذلك بكل وضوح في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين محمود حين قال: "وعند وصول جرج في هذه الوفقة الأخيرة، رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب مما لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتلة لا رسول مجاملة، وحامل بلية لا حامل هدية، فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وا إليه..." حيث أحيط الرسول جرج بعملاء لصلاح الدين من أقباط مصر والذين تمكنوا من كسب ثقته فافشى لهم تفاصيل المؤامرة، فقاموا بإبلاغ صلاح الدين، عندها أصدر أوامره بإلقاء القبض على المتآمرين، وأعدم زعمائهم في رمضان سنة (569هـ/1174م) دون أن يعلم الأسطول(1).

ثالثاً : دور العيون والجواسيس في كشف المؤامرات.

لقد كان للعيون والجواسيس دور بارز في كشف المؤامرات والحيل العسكرية التي كانت تستهدفقيادة الدولة الزنكية والأيوبية، وا ن كانت هذه المؤامرات قد تضاعفت في زمن الدولة الأيوبية وفي عهدالسلطان صلاح الدين على وجه الخصوص، نظراً لحجم النزاعات والتحديات الداخلية التي كانت تواجههفي وقت كان يسعى فيه جاهداً لمواجهة التحديات الخارجية المتمثلة بالإمارات الجاثمة على أرض الشام، وملولاته الحثيثة لتحرير الأرض الإسلامية، وا عادة بيت المقدس إلى حظيرة الإسلام، وقد شملت هذه المؤامرات محاولات لقتل صلاح الدين، وأخرى لتكوين تحالفات مع الفرنجة من أجل إلحاق الهزيمة به، ولولا عناية الله أولاً ثم دور المخابرات الأيوبية الفاعل في كشف هذه المؤامرات لما استطاع صلاح الدين أن يحقق ما حققه من انتصار على الفرنجة وتحرير بيت المقدس.

يروي ابن الأثير في كتابه الكامل قصة المؤامرة التي تعرض لها صلاح الدين من قبل الدولة الفاطمية فيما يعرف بوقعة السودان بمصر. حيث اتفق العاضد مع مجموعة من المصريين على استدعاء الإفرنج للتقوى على صلاح الدين وقد شارك في هذه المؤامرة يهودي، وهو الذي حمل الكتاب، ومن حسن نباهة عيون السلطان صلاح الدين استطاع رجل منهم أن يكتشف أمر اليهودي الذي يحمل الرسالة إلى الإفرنج، ومن ثم يحبط المحاولة(2).

وفي محاولة للباطنية لقتل صلاح الدين، إلا أن عناية الله، ثم حسن انتباه عيون السلطان دون نجاح هذه المحاولة، ومن ثم قتل كل من اشترك فيها(3)

([1]) ابن كثير، البداية والنهاية (12/ 245)

([2]) ابن الأثير، الكامل (15/ 18- 19)

([3]) أبو شامة، الروضتين (2/ 350)

أما محاولة الاغتيال الثانية التي تعرض لها صلاح الدين فكانت في سنة (1174م/ 569هـ) حيث دبر بعض رجال الدولة الفاطمية السابقين الحالمين بإعادتها، تلك المؤامرة، حيث اتصلوا بالحشيشية و الفرنجة ووليم النورماني ملك صقلية (1).

حيث أرسل عموري الأول المشترك في المؤامرة رسولاً إلى القاهرة يحمل ظاهراً تحياته إلى صلاح الدين أما في باطن الأمر، فقد كان إرسال هذا الرسول جزءاً من المؤامرة، وقد وصل إلى القاهرة ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين فيها. وقد كان المتآمرون قد أشركوا معهم في مؤامرتهم هذه الفقيه زين الدين علي بن نجا، غير أن هذا الأخير أسرع إلى صلاح الدين، وأطلعه على خيوط المؤ امرة (2)، فما كان من صلاح الدين إلا أن انتظر وصول الرسول الفرنجة، ولجأ إلى حيلة ذكية، هي أنه دس على ذلك الرجل جواسيس مسيحيين، لاكتشاف نوايا الفرنجة الحقيقية، وقد استطاع هؤلاء اكتساب ثقته؛ فكشف لهم عن تفاصيل المؤامرة، فنقلوها إلى صلاح الدين، الذي أسرع بالقبض على زعماء المؤامرة، وصلبهم(3).

إن هذه الرواية تُؤكد حجم انتشار العيون والجواسيس في كل ربوع الدولة الأيوبية، وأن عمل العيون قد مارسه حتى العلماء والفقهاء، وأن قدرة العيون والجواسيس في التحقيق مع الرسول الفرنجة مكنت صلاح الدين من إفشال محاولة اغتياله الثانية.

رابعاً : دور العيون والجواسيس في مكافحة النشاطات التجسسية المضادة.

كان من مهام العيون الأيوبية متابعة خطط الفرنجة لاختراق الجبهة الداخلية الإسلامية، وقد تمكنت العيون الأيوبية من إحباط معظم المحاولات ، والتي كانت تتصف بالدقة والابتكار، إذ لم يتركوا وسيلة ولا حيلة من الحيل إلا واستخدموها، ولم يتركوا شريحة من شرائح المجتمع الإسلامي إلا وحاولوا اختراقها، ولعل من أبرز أساليبهم محاولة إفساد الجند الإسلامي وشباب المدن الإسلامية بممارسة الرذيلة مع النساء الفرنجةات ممن دفعن للبلاد الإسلامية لهدف مزدوج. جمع الأبظار وا إفساد الطاقات الشابة في المجتمع الإسلامي، ويشخص لنا المؤرخ أبو شامة وعي العيون الأيوبية لهذا الأسلوب حيث قال: "ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتدبن إلى الجرائر، واغترين لإسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهم للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لاسيما من اجتمعت فيه عُزبة وغُربة. وأَبق من عسكرنا من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى منهم من رضي للذة بالذلة "(4).

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب (1/ 243-244)

([2]) ابن الأثير، الكامل (9/ 390-391)؛ أبو شامه، الروضتين (2/ 282-284)

([3]) ابن الأثير، الكامل (9/ 390-391)

([4]) أبو شامة، الروضتين (4/ 105-106)

ولعل ما كان يقلق العيون الأيوبية هو تنامي علاقات العيون مع بعض الأعراب، رغم قسوة الفرنجة في معاملتهم، والتنكيل بمن قصر في خدمتهم، فقد أعدم ريتشارد قلب الأسد على سبيل المثال في العاشر من شعبان (587هـ/1191م) جاسوسين من جواسيسه من الأعراب لكونهما قد أخطأ ذات مرة في جلب المعلومات الصحيحة عن الجيش الأيوبي(1).

لقد كانت العيون الأيوبية تراقب تحركات الأعراب ممن كانوا لا يتورعون في جلب المؤن والأقوات والأخبار للصليبيين، فضلاً عن عملهم كأدلاء للجيوش ، وقد استخدمت القيادة الأيوبية عدة وسائل لقطع الصلات ما بين الأعراب و الفرنجة منها:

مصادرة الأموال والأراضي والمحاصيل كما فعلت مع قبيلة جذام التي أُمرت بالانتقال من الشرقية إلى البحيرة من نواحي الإسكندرية، بسبب تهريب الحبوب للصليبيين(2).

أما قبيلتي عبّاد التي كانت تقطن منطقة صرخد الملاصقة لمنطقة حوران من أعمال دمشق، فقد تم ترحيلها من هذه المنطقة وإقطاع رجالها إقطاعات أخرى في مناطق بعيدة لأنهم كانوا يشكلون خطراً على المنطقة الواقعة بين مصر والشام، ولأنهم كانوا يعرفون خبر طرقها ومسالكها، فضلا عن تهريبهم الحبوب للصليبيين(3).

كما قام صلاح الدين الأيوبي بشن غارات على الأعراب المقيمين حول الكرك والشوبك للحيلولة دون مساعدتهم للصليبيين، لا بل سيرهم إلى الشام لحل المشكلة حلاً جذرياً وقد أوضح صلاح الدين الأيوبي في رسالته التي بعث بها إلى نور الدين محمود سبب قسوته على هؤلاء الأعراب بقوله: "سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أن لا يبقى في بلادهم أحداً من العربان، وأن ينقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، ترحيل كثير من أنفارهم والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدو اليوم لا يجد بين يديه دليلاً ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً "(4).

ولعل من أبرز عمليات العيون الأيوبية في مكافحة التجسس تلك التي تم فيها إحباط محاولةٍ للاستخبارات تهريب نسخة من رسالة والي القدس المسلم إلى صلاح الدين الأيوبي، والتي يوضح فيها سوء أحوال المدينة وحاجتها للمؤن والعدد، والمدد العاجل، في وقت كان يتهيأ فيه الفرنجة لإعادة احتلال المدينة، فقد عزم ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد على محاصرتها والاستيلاء عليها، إلا أن تمكن العيون الأيوبية من إلقاء القبض على مجموعة من جواسيس الفرنجة في القدس وهم يحملون تلك الرسالة الهامة والخطرة في تلك الظروف الصعبة التي تعيشها المدينة المقدسة أفشل المخطط الفرنجة في إعادة احتلالها(5).

---

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 232.

(2) المقريزي، السلوك، ق1 (1/ 71)

(3) المصدر نفسه.

(4) البنداري، سنا البرق (1/ 126)

(5) ابن شداد، النوادر، ص: 189.

إلا أن هذه النجاحات التي حققتها العيون الأيوبية في مكافحة عمليات التجسس كان يقابلها بعض الإخفاقات، فقد تمكنت العيون من اختطاف القائد سعد الدين شاهنشاه ابن الملك المظفر تقي الدين عمر سنة (573هـ/1177م) بعد أن استدرجته العيون وفق خطة مدروسة بمساعدة بعض المستأمنين في دمشق حيث سلم إلى فرسان الداوية، فبقي في الأسر حتى استنقذه صلاح الدين بمال كثير وفكاك الكثير من أسرى الفرنجة(1) كما أن أحد أسباب سقوط مدينة عكا بأيدي الفرنجة هو نجاح العيون في اختراق الجبهة الداخلية للمدافعين عن المدينة، خاصةً النصارى الذين كانوا على خزانة المال، إذ عمدوا إلى المماطلة في صرف الأموال لتجنيد العسكر مما جعل الناس يتفرقون ويتقلص عدد المدافعين عن أسوار المدينة(2)، وفي نفس الوقت خرج بعض أهالي البلد وأعان نقابي الفرنجة حتى وقعت ألبان السور وأبراجه(3).

كما كان لها دور بارز في حماية المجتمع المسلم من السقوط الأخلاقي فقد سعى الفرنجة جاهدين إلى تفكيك المجتمع المسلم بشتى الوسائل، وكما هي الحال في كل أجهزة العيون في العالم وخصوصاً الغربية، حتى في عصرنا الحالي، لا يوجد طريقة أنجح من استخدام النساء، لحرف الشباب المسلم عن المواجهة والحرب والجهاد، فقامت العيون بإرسال ثلاثمائة امرأة فرنجية لممارسة الدعارة والبغاء وقد أوهمتهم العيون أن ما يقومون به عمل ديني يؤجرون عليه، الأمر الذي يجعلهم أكثر استعدادا وتصميماً للإيقاع بالجهال والأغبياء والأشقياء من الشباب المسلم؛ إلا أن العيون الإسلامية كانت لهم بالمرصاد وكشفت المؤامرة، وحمت المجتمع الإسلامي من حالة الإفساد المتعمدة.

وفي شرح تفاصيل هذه الحادثة، يروى أبو شامة في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية فيقول: "ووصلت في مركب ثلاث مئة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر واغتربن لإسعاف الغرباء وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء وأنهن لا يمتنعن من العزبان ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لاسيما فيمن اجتمعت فيه عزبة وغربة.

قال وأبق من عسكرنا من المماليك الأغبياء والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى واتبعوا من غوى فمنهم من رضي للذة بالذلة ومنهم من ندم على الزلة فتحيل في النقلة فان يد من لا يرتد لا تمتد وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد وباب الهوى عليه يستد وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها العزب حرج وما أزكاها عند القوقس إذا كان للعزبان المضيقين من فرجها فرج قال ووصلت أيضا في البحر امرأة كبيرة القدر وافرة الوفر وفي جملتها خمس مئة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم

([1]) ابن واصل، مفرج الكروب (2/ 60)

([2]) ابن الأثير، الكامل (10/ 198)

(3) الأصفهاني، الفتح القسي، ص: 522.

وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤنة زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها

وفي الفرنج نساء فوارس لهن دروع وقوانس وكن في زي الرجال ويبرزن في حومة القتال ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات الحجال وكل هذا يعتقدنه عبادة ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعلنه لهن عادة فسبحان الذي أضلهن وعن نهج الهدى أزلهن وفي يوم الوقعة قلعة منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة وفيهن مع لينهن قسوة وليس لهن سوى السوابغ كسوة"(1).

خامساً : دور العيون والجواسيس في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرنجة.

لم تدخر العيون الأيوبية أي جهد في سبيل تحطيم الروح المعنوية للصليبيين، حتى يتحقق لها الانتصار، وفي سبيل ذلك استخدمت كل الخدع والحيل الحربية التي تساعدها على ذلك، وقد تحدثنا آنفاً عن دورها في المعارك والأعمال الحربية، ولعدم التكرار،فإن الدراسة ستركز على أسلوبين هامين استخدمتهما العيون الزنكية والأيوبية في تحطيم الروح المعنوية للصليبيين آلا وهما الإشاعة، والشهرة والصيت، وفيما يلي التفصيل:

1. الإشاعة:

الإشاعة هي أحد أهم أساليب العمل الاستخباري التي تمارسها أجهزة العيون ضد أعدائها بهدف نشر البلبلة حول موضوع معين حتى تتغلب علي أعدائها وقد تم استخدام الإشاعة وقد تم استخدام الإشاعة بشكل واضح في العهدين الزنكي والأيوبي حيث مارس نور الدين هذا الأسلوب بشكل مكثف وتكشف الأحداث عن مدي فعالية الإشاعة خلال غزوات نور الدين ضد الفرنجة وكان هذا الأسلوب معروفا لديعماد الدين زنكي.

لقد كان الغرض الأساس لنشر الإشاعة هو إحداث ارتباك في صفوف جيش العدو، مما قد يكون له تأثير فعال علي معنويات العساكر فيعجزون عن الوصول إلى أهدافهم(2).

فعندما فتح نور الدين محمود قلعة حارم سنة (559 هـ/1164م) سمح لعساكر البلاد النائية كالموصل وديار بكر بالعودة إلى ديارهم وأشاع أنة يريد المسير نحو طبرية لفتحها فاتخذ الفرنجة جميع الاحتياطات لتحصينها والدفاع عنها، ثم وجه حملته ضد بانياس "لعلمه بقلة من الحماة المانعين عنها، ونازلها، وضيق عليها وقاتلها فملك القلعة"(3).

([1]) أبو شامة، الروضتين (4/ 100-106)

([2]) بهيني، وقفات، ص: 196- 197.

([3]) ابن الأثير، الكامل (9/ 469)

كما لعبت الإشاعة دورها أثناء حصار نور الدين محمود لدمشق، فقد استطاع نور الدين من خلال الإشاعة أن يخلق جواً من الشك والريبة وعدم الثقة فيما بين مجير الدين وأُمرائه، وهو ما سهل له أمر الدخول دون إراقة دماء(1).

وقد لعبت الإشاعة دور مهم في بداية الغزو الفرنجة لبلاد الشام في الحد من قوة الفرنجة فبمجرد وصول الفرنجة إلى حدود بلاد الشام واشتهر أَمرهم شرعت و ُلا َة الأ ْ َال المصاقبة لَهُم والأطراف الإسلامية الْقَرِيبَة مِنْهُم فِي التأهب للمدافعة لَهُم والاحتشاد على المجاهدة فيهم وقصدوا درونبلذهمابورهم لكَي يمنعوهم من العبور والنفوذ إِلَى بِلاَد الإِسْلاَم وواصلوا شن الغارات على أَطْرَافهم واستحر الْقَتْل فيهم وإِلَيْكأَن هلك مِنْهُم الْعدَد الْكثير وَحل بهم من عدم الْقُوت ات والمير وَغَلاَء السّعر إِذا وجدوه مَا أفنى الْكثير مِنْهُم بِالْجُوعِ وَالْمَرَض" (2).

وقد خصص الهروي فصلاً تحدث فيه عن الإشاعة وأهميتها في كسب المعارك وتحقيق النصر بعنوان: "في قتال الحصون وحصارها ومكائد ذلك والحيلة في"، حيث يقول في إحدى فقراته "وليكاتب الأمير أهل الحصن ويراسل أهله ومقدميه ويضمن لهم ما يطلبونه وليظهر لهم أن بعضهم يكاتبونه ويريدونه لا يعين أحداً منهم وليترك الأمر مكتوباً والحال مغموماً فيظن كل واحد منهم في صاحبه ويطلب التقدم لنفسه ليأخذ بذلك عند الملك يداً ويجعله له سنداً "(3).

كما أن الفرنجة لم يغفلوا أهمية الإشاعة في ضرب الروحة المعنوية لدى المسلمين، فقد نشر ذات مرة مقتل نور الدين محمود الأمر الذي كان له انعكاس سيء على الجند وعلى صلاح الدين نفسه ورد في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية حول هذا الخبر: "وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين فأرسل كتاباً بالمثال الفاضلي فيه ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه ونور بعافيته القلوب والوجوه واشتد به الأمر وضاق به الصدر وانقصم بحادثة الظهر وعز فيه التثبت وأعوز الصبر فإن كان والعياذ بالله قد تم وخصه الحكم الذي عم فللحوادث تذخر النصال وللأيام تصطنع الرجال وما رتب الملوك ممالكها إلا لأولادها ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حقها يوم حصادها فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها وتعدم الآراء رشادها وتنتقل النعم التي تعبت الأيام إلى أن أعطت قيادها فكونوا يداً واحدة وأعضاداً متساعدة وقلوباً يحملها ود وسيوفاً يضمها"(4).

وفي استخدامه للإشاعة استطاع نور الدين بذكاءه أن يوهم الأعداء أنه لا يريد حصن بانياس ويريد أن يفتح طبرية، الأمر الذي شاع بين الأعداء، ونجحت خطة زنكي ومكنه الله من أعداءه.

---

(1) بهيني، وقفات، ص: 197.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق (1/ 462)؛ أبو شامة، الروضتين (1/ 184)

(3) الهروي، التذكرة الهروية، ص: 247.

(4) أبو شامة، الروضتين (2/ 319)

وفي ذلك يقول ابن الأثير: "في ذي الحجة من هذه السنة أي عام (559هـ/ 1164م) فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهي بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم وأظهر أنه يريد طبرية فجعل من بقي من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها نازلها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى وجد في حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالاً وشاطر الفرنج أعمال طبرية وقرروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً في كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلا وقد ملكها"(1).

2. الشهرة والصيت:

هي أحد أساليب العمل الاستخباري الذي تحاول من خلاله أجهزة العيون تضخيم إنجازات شخص مسئول في الدولة لجعله قدوة لأبناء شعبه، ولبث الرعب والخوف في الأعداء، خصوصاً إذا ما أُكل له قيادة الجيوش أو بعض المهمات العسكرية أو حتى السياسية في مواجهة الأعداء.

وقد حدث أن كانت الشهرة والصيت سبباً في تحقيق الانتصار عندما يعلم جنود وقادة الأعداء أن القائد فلان هو من يقود الجيش. ولنا في القائد المسلم خالد بن الوليد ﷺ خير مثال في ذلك، فلقد كان اسمه يوقع الرعب والخور في صفوف الأعداء عندما يعلموا أن خالداً قد دخل في مواجهتهم ليقود المعركة.

والدولة الإسلامية في العهدين الزنكي والأيوبي لم تغفل عن استعمال هذا الأسلوب، خصوصاً وأنها امتلكت قيادات بارزة، كان لها دور مؤثر في طبيعة الصراع مع الفرنجة، من أمثال عماد الدين زنكي الذي زاعت شهرته في بلاد المسلمين والإفرنج بما إمتاز به من إرادة ورغبة كبيرة في مواجهة الفرنجة، وكذلك نور الدين محمود بن زنكي الذي سهلت له الشعبية التي كان يحظى بها عند الجماهير الإسلامية في مصر وبلاد الشام والعراق، الأمر الذي كان له تأثير كبير على حكام الإمارات غير الخاضعة لسلطانه، مما سهل عليه توحيد صفوفها لمواجهة الخطر الفرنجة بوجوده الاستيطاني الذي كان يهدد الجميع(2).

([1]) ابن الأثير، الكامل (9/ 558)

([2]) بهيني، وقفات، ص: 190.

سنحاول من خلال استعراض بعض ما ورد في المصادر التاريخية التعرف على أهمية ودور هذا الأسلوب في حياة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود زنكي، وأثر واضح في صراعهم الفرنجة، أما شهرة صلاح الدين الكبيرة، فلم تنتشر إلا بعد وفاته (1).

- **عماد الدين زنكي:**

أورد ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ بعض المعلومات التي كشفت النقاب عن أهمية الدور الذي لعبته الشهرة في صد الهجوم الفرنجة على بعض المناطق الإسلامية. ويجب الإشارة هنا إلى أن الشهرة في هذه الحالة امتزجت بالحيلة، فأثناء حصار البيزنطيين لشيرز سنة (523هـ/1196م) استنجد أُمراء بنو منقذ بعماد الدين زنكي، وكان زنكي يركب كل يوم ويسير إلى شيرز هو وعسكره ويقفون بحيث يراهم الروم، ثم بعد ذلك أرسل إلى ملك الروم يقول له: "إنكم قد تحصنتم مني بهذه الخيال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وا ٍن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيرز وغيرها"(2).

إن هذه المبلرزة الإعلامية لعماد الدين زنكي لا تعني أنه كان متفوقاً عسكرياً على القوات المحطرة للمدينة، ولم تكن قوته العسكرية تجعله قادراً على الهجوم عليهم، نظراً لكثرة عددهم، وحسن تحصنهم، فقأراد من خلال هذه المبارزة الإعلامية توصيل رسالة للصليبيين ليخوفهم ويُلقي الرعب في قلوبهم، وهنا يبرز دور أسلوب الشهرة والصيت، حيث يتضح من خلال الحوار الذي دار بين القادة الفرنجة وملك الروم حينما أشار عليه مستشاروه بمواجهته، فرفض وقال: "أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة وا ٍنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عكسره ما يعجزكم"(3).

لقد كان ملك الروم يعلم جيداً مدى قوة عماد الدين زنكي وموارده الكثيرة، ولم يصدق أن يكون معه عدد قليل من الجند. وهذا يعني أن شهرة عماد الدين زنكي قد وقعة في نفسه وفعلت فعلها في وجدانه وتفكيره، الأمر الذي دفعه إلى الرحيل عن شيزر عائداً من حيث أتى. وهذه الحادثة تعطي مؤشراً واضحاً على حسم بعض المواجهات حتى دون قتال مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر"(4).

وقد شكلت السمعة والصيت عاملاً مؤثراً سهل انضمام العديد من المدن الشامية إلى نفوذ عماد الدين زنكي صاحب السمعة والصيت.

([1]) بهيني، وقفات، ص: 191؛

([2]) ابن الأثير، الكامل (9/ 302)؛ أبو شامة، الروضتين (1/ 32)

([3]) ابن الأثير، الكامل (9/ 302)

([4]) BiHINI,A,Les aspects et les caracteristiques du Gihaden Syrie (al – sam) aux v- VI/ XI – XII siecles, These de Doctorat (nouveau regime), lille, 1990, PL87.

- **نور الدين محمود زنكي.**

كان يحظى بشعبية من نوع آخر بين أبناء أمته، شعبية تجاوزت مدن دولته وقراها إلى البلاد المجاورة، الأمر الذي مكنه من كسب رعاية خصومه من الداخل، وسهل عليه أمر التأثير على أمرائها وضمهم إلى سلطانه وانسجاما مع مشروعه الذي كان يهدف إلى تحقيق الوحدة الإسلامية التي اعتزم بناءها دون إراقة دماء(1).

وتزخر المصادر التاريخية بأمثلة كثيرة في هذا الباب، وتوضيحاً لأهمية هذا الأسلوب الاستخباري في المواجهة العسكرية مع الفرنجة.

فعندما تقدم نور الدين محمود إلى دمشق لفك حصارها المفروض من الحملة الثانية سنة (543هـ/1140م)، حيث اتضح لأهل دمشق جديته في جهاد الفرنجة فتمنوا لو يدخل إلى المدينة، ويتولى تسيير أمورهافأخذوا يدعون له دعاءً متواصلا(2).

وخلال المراحل المتتالية للحصار، شرع عدد من الطلاب الفقراء والضعفاء في الالتحاق به في معسكره. أما الفلاحون فقد كانت قلوبهم معه، لأنه منع عساكره من إعاثة الفساد في مزارعهم، وأعلن لهم أنه جاء ليحميهم من بطش وتعسف الفرنجة(3).

إن سمعة نور الدين لدى أهل دمشق تأكدت بشكلٍ واضح عندما تقدم إلى المدينة مرة ثانية في عام (546هـ /1141م) لضمها إلى جبهة القتال ضد الفرنجة، الأمر الذي رفضه صاحبها مجير الدين، بل واستنهض العساكر لمواجهة نور الدين محمود، إلا أن العساكر لم يستجب منها إلا العدد القليل، نظراً لاستنجاده بالفرنجة ضد زنكي.

إن هذه الحادثة توضح أن السمعة والصيت التي كان يتمتع بها نور الدين محمود زنكي قد فعلت فعلها في نفوس العساكر في دمشق. وقد كانت هذه السمعة تتعزز في نفوس الدمشقيين يوماً بعد يوم(4)، ففي مرةٍ ثالثة حاصر دمشق بعد رفض مجير الدين توحيد المسلمين والنزول تحت سلطانه، إلا أنه لم يأذن لأحد من عسكره في التسرع إلى قتال أحد من المسلمين من رجال البلد وعوامه تحرجاً من إراقة الدم فيما لا يجدي نفعاً "(5).

وبذلك استطاع نور الدين محمود الدخول إلى دمشق سنة 549هـ/1154م بمساعدة من أهلها الذين طالما انتظروا قدومه منذ سنوات، وقد بلغت سمعته لدرجة جعلت أهل دمشق يرون وجود إرتباط

([1]) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 315 – 316.

([2]0) المصدر نفسه، ص: 308.

([3]) المصدر نفسه، ص: 309.

([4]) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (8/ 209)

([5]) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 314.

وثيق بين نزول الغيث على بلدهم وبين وصوله إلى بعلبك وقالوا: "هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته"(1).

يروي ابن الأثير عن سمعة نور الدين محمود التي كانت له شعبية جارفة لدى المجتمع الإسلامي ففي سنة 559هـ، عقد نور الدين محمود العزم على فتح حارم. فطلب نجدات من أمراء الأطراف. وقد لبوا الطلب ما عدا الأمير فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي صاحب ماردين الذي امتنع عن التطوع في البداية، إلا أنه غير رأيه بعد ذلك، وأرسل النجدة لنور الدين، يقول ابن الأثير: "إن نور الدين قد سلك معي طريقاً -يقول فخر الدين- إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعاء ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدين، ويلعنوني ويدعون علي، فلا بد من المسير إليه، ثم تجهز، وسار بنفسه"(2).

إن ما زاد من سمعة عماد الدين ونور الدين الطيبة، إقدامهما على اتخاذ عدة إجراءات تركت أثراً إيجابياً في نفوس مواطنيهم، فيروى أن نور الدين لما فتح معرة النعمان سنة 531هـ/ 1137م واسترجعها من أيدي الفرنجةاتخذ إجراءاً قال بصدده ابن الأثير ما يلي: "ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكي مع أهل المعرة فإن الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم، فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا إن الفرنج أخذوا كل ما لنا والكتب التي للأملاك فيها فقال: اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه، ففعلوا ذلك، وأعاد على الناس أملاكهم"(3).

كان عماد الدين حنفي المذهب، وبحسب رأي هذا المذهب فإنه إذا خر جت بلاد المسلمين إلى الكفار، ثم رجعت فإنها لبيت المال، قال: "إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم، ونحن نأخذ أملاكهم، فأي فرق بيننا وبين الإفرنج، كل ما جاء بكتاب يدل على أنه مالك الأرض فليأخذها"(4).

والإجراء نفسه اتخذه نور الدين مع خلف سكان عزاز سنة 544هـ/1149مـ. يقول ابن شداد: "ونادى نور الدين في سائر بلاد حلب: "من كان له ملك في عزاز، ومعه بينة تشهد له فالملك له، لا يعارض فيه" فأثبت الناس أملاكهم بالكتب القديمة التي كانت في أيديهم بالبينة، وأقسم ما كان فيها من الغلال عليهم"(5).

وقد كان الهدف من إنفاذ هذا الإجراءمزدوجاً :

([1]) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص: 308.

([2]) ابن الأثير، الكامل (9/ 467 – 468)

([3]) المصدر نفسه (299/9)

([4]) ابن واصل، مفرج الكروب، ص: 74 – 75.

([5]) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق1 (80/1)

أولاً : لأنه يبرز الطابع الذي أراد الرجلان أن يطبعا به حملاتهما، بمعنى الانتقال من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم.

ثانياً : لأن إعادة الأملاك الواقعة على الحدود لأصحابها الأصليين سيضمن لأولياء الأمر حماة أوفياء مستعدين للدفاع عن أراضيهم باستماتة ضد العدو.

وثالثاً : لأن أخبار هذا الإجراء سيزيد من شعبيتهما لأنها ستتجاوز حدود بلادهما إلى بلاد أخرى"(1).

سادساً : دور العيون والجواسيس في زعزعة استقرار الفرنجة.

لقد سعى صلاح الدين إلى استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل تحقيق الانتصار على الفرنجة، وقد أدرك بعبقريته أهمية زعزعة الاستقرار في المجتمع الفرنجة، وان لا يستقر لهم حال، لذلك برزت مهارته قدره على استغلال كل الطاقات الممكنة وتجنيدها، لكسب جولات الصراع مع أعدائه، فقد سعى رحمه الله إلى تحويل عوامل البناء والتخريب في المجتمع وتحويلهم إلى عوامل بناء وهذا ما تجلى بشكلٍ واضح من خلال استغلاله لطاقات ومواهب اللصوص، حيث نجح في تحويلهم من عناصر هدامة تزعزع أمن المجتمع الإسلامي الداخلي إلى عناصر مجاهدة تخدم أهداف الأمة.

فقد جمع لصوص الشام وأقنعهم بأنهم يتمتعون بمواهب كبيرة يمكن استغلالها في كسر شوكة الأعداء، وأن أفضل شيء يمكن أن يُكفروا به عن خطاياهم السابقة هو الجد في محاربة أعداء الأمة، حيث شكل منهم فرقة من ثلاثمائة شخص، وطلب منهم اختطاف أفراد وقادة الجيش الفرنجة لاستجوابهم، والتعرف على تحركاتهم ونواياهم وخططهم(2).

فنجحوا في تنفيذ المهام التي أوكلت لهم نجاحاً كبيراً، فكانوا يتسللون إلى معسكرات الفرنجة في جرأة عظيمة، فيخطفون بعض الأفراد ويعودون بهم إلى مراكز القيادة التي ينتمون إليها.

حاول السلطاناستخدام اللصوص لزعزعة استقرار معسكرات وا إمارات الإفرنج حتى لا يستريحوا، يبقيهم في حال استنزاف دائم، وفي ذلك يقول ابن شداد "ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرساً وبلغة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوها، وكان قد رتب رحمة الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب، يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم، ويسرقون الرجال أحياناً، وذلك أنه يكون الواحد منهم نائماً فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ فيرى الشلح (اللص) وقد وضع الخنجر على نحره فيسكت ولا يتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيام ويُؤخذ أسيراً، وتكلم منهم

([1]) البهيني، وقفات، ص: 193 – 194.

(2) ابن شداد، النوادر، ص: 249-250.

جماعة فيُخروا، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم واختاروا الأسر على القتل، وداموا على ذلك مدة طويلة إلى انتظام الصلح(1).

وقد تكررت حوادث دخول عيون المسلمين للخيام وسرقتها لزعزعة أمن الفرنجة(2).

(1) ابن شداد، النوادر، ص: 249-250.

(2) المصدر نفسه، ص: 143.

الـخـاتـمـة

أولاً : الاستنتاجات.

لقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

1. وجود تنظيم واضح لعمل العيون في العهدين الزنكي والأيوبي.

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن عمل العيون والجواسيس في الدولتين الزنكية والأيوبية، لم يكن لاًممبعثراً، وغير موجه، بل كان عمل مؤسسياً، يُدار من قبل أعلى هرم السلطة في الدولتين، حيث أسس عماد الدين زنكي لهذا العمل تأسيساً منهجياً وإدارياً سليماً، فقد أنشأ جهازاً للاستخبارات تحت مسمى جهاز العيون والجواسيس، وخص له الموظفين والرواتب، وقد ورد عنه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلوتهم، وقد سار ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي على هذا النهج بل وأصلا له بطريقة أكثر مهنية من خلال الوحدات الفاعلة التي كانت تخدم في مجملها الهدف العام وهو حماية الدولة الإسلامية، ومواطنيها.

وقد تم إنشاء ديوان البريد لهذا الغرض، والذي كان يعتبر الجهاز الإداري والإطار التنظيمي لعمل العيون والجواسيس، كما تم إنشاء وحدة الحمام الزاجل من أجل نقل المعلومات بين الأمصار بأقصى سرعة، ولتنفيذ عمليات الاستطلاع بالقوة، تم إنشاء فرقة اليزك التي كانت تمارس الأعمال العسكرية، من أجل الحصول على المعلومات بالقوة.

ولاستنطاق الأسرى والمستأمنين، تم إنشاء وحدة التحقيق التي عملت على كشف خبايا الأمور ومعرفتها، ولأن الصراع مع الفرنجةكان صراعاً شاملاً، وهو صراع مع قوة استيطانية ليست جزءاً من الإقليم، وتختلف عنه ثقافياً ولغوياً، كان لابد من إنشاء وحدة الترجمة، لمعرفة لغة الأعداء، من أجل معرفة تحركاتهم، وأعمالهم، وتأمين الدولة من مخاطرهم.

2. تنوع الأساليب والأدوات والوسائل المستخدمة في تنفيذ مهمة العيون والجواسيس.

ثبت أن جهاز العيون والجواسيس لدى الزنكيين والأيوبيين لم يكن تقليدياً، جامداً، بل كانت له أنشطة وأساليب إبداعية في سبيل الحصول على المعلومات أو حتى نقل المعلومات.

كما استخدم أسلوب التجسس من أجل الحصول على المعلومات، واستخدم أصحاب المواصفات الخاصة من أبناء المسلمين وغير المسلمين للعمل كعيون وجواسيس، وقد كانت لهم نتائج إيجابية.

3. وجود دور مؤثر وواضح لعمل العيون والجواسيس في الصراع الإسلامي مع الفرنجة.

تعددت أدوار ومجالات التأثير لعمل العيون والجواسيس في هذا الصراع، وكان من أهمها دورهم في المعارك والأعمال العسكرية، مثل مشاركتهم في حصار الحصون والقلاع، وتدمير الأسلحة الإستراتيجية للعدو، وكذلك حماية الأمن الداخلي والذي تمثل في مراقبة رجال الحكم والدولة، وحث المواطنين على التعبئة العامة،ومراقبة الحدود، والسفراء القادمين للدولة من غير دار الإسلام.

كما كان لهم دور واضح في كشف المؤامرات، ومكافحة الأنشطة التجسسية، حيث كانت العيون لا تدخر جهداً في اختراق المجتمع المسلم للحصول على المعلومات وضرب الصف الإسلامي، وذلك من خلال استخدام أقذر الأساليب، والتي كان من أهمها النساء البغايا، ولولا فضل الله ومنته، ثم بجهود العيون والجواسيس لاستطاع الفرنجة تحقيق مآربهم.

ولم يغفل العيون والجواسيس أهمية الروح المعنوية، فقد تمكنوا من تحطيم معنويات الفرنجة، وشن حرب نفسية كبيرة كان لها أكبر الأثر على الصراع الإسلامي الفرنجة، وقد أكدت على أهمية دورها في زعزعة الاستقرار الفرنجة في بلاد الشام من خلال استخدام اللصوص لتنفيذ هذا الغرض، وقد نجح في ذلك إلى حدٍ بعيد.

ثانياً : التوصيات.

بناءً على ما تم التوصل إليه من نتائج يوصي الباحث بما يلي:

1- ضرورة الاستفادة من دراسة الحروب بعمق لما لها من انعكاس مباشر على القضية الفلسطينية، وصراع الفلسطينيين مع الصهيونية العالمية.

2- التوسع في دراسة العمل الاستخباري والأمني زمن الحروب .

3- تعميق استخدام المنهج التحليلي في الدراسات التاريخية.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية.

1. القرآن الكريم.
2. ابن أبي الركب، مصعب بن محمد (أبي بكر) بن مسعود الخشنى الجيانى الأندلسي، أبو ذر، ويعرف كأبيه، بابن أبي الركب (ت 604هـ/1207م):
   - "الإملاء المختصر في شرح غريب السير"، بولس برونله، دار الكتب العلمية، بيروت.
3. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين(ت630هـ/1232م):
   - "الكامل في التاريخ"، ج1– 9، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1995م.
   - "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل"، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط2، 1995م.
4. الابشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (ت852هـ/1448م):
   - "المستطرف في كل فن مستطرف"، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1419 هـ.
5. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت 560هـ/1164م):
   - "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1994م.
6. الازدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت 321هـ/933م):
   - "جمهرة اللغة"، تحقيق رمزي منير بعلبكي، 3 اجزاء، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1987م.
7. الأزدي، أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين (ت 613هـ/1326م):
   - " أخبار الدول المنقطعة"، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، ط1، دار الكندي، اربد، 1999م.
   - "أخبار الدولة الحمدانية بالموصل وحلب وديار بكر والثغور"، تحقيق تميمة الرواف، ط1، دار حسان للطباعة والنشر، 1985م.

8. الاخفش الأصغر،علي بن سليمان بن الفضل، أبو المحاسن، المعروف بالأخفش الأصغر (ت315هـ/927م):

- "الاختيارين"، تحقيق فخر الدين قباوة، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1420هـ / 1999م.

9. ابن الأزرق، محمد بن علي بن محمد الأصبحي الأندلسي(ت 896هـ/1489م):

- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، ط1، وزارة الإعلام، العراق، ب.ت.

10. الأنباري، أبو بكر (ت 328هـ/940م):

- الزاهر، ج1، ط1، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1412هـ/1992م.

11. الأوسي الأنصاري، عمر بن إبراهيم (ت أوائل القرن التاسع الهجري/ أول القرن الخامس عشر الميلادي):

- "تفريج الكروب في تدبير الحروب"، حققه وترجمه إلى الانجليزية جورج سكانلون، منشورات الجامعة الأمريكيةالقاهر ة، 1961م.

12. البخاري، أبو عبد الله (ت 256هـ/869م):

- "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، الحافظ أحمد بن محمد علي ابن حجر العسقلاني، عناية عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ترقيم، محمد فؤاد عبد الباقي، 13 جزء، دار المعرفة، بيروت، 2010م.

13. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي(ت 779هـ/1377م):

- "الرحلة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، تحقيق علي المنتصر الكتاني، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984م.

14. البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت 629هـ/1230م):

- "الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"، نشر كمال حافظ، زند وجون آ.وايفي أي.فيدن، مطبعة لندن، 1965م.

15. البغدادي، عبدلمؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي ّ الدين (ت739هـ/1338مـ):

- "مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع"، 3 أجزاء، ط1، دار الجيل، بيروت 1412هـ.

16. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد (ت 487هـ/1094م):

- "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، تحقيق مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، بيروت، 1982م.

17. البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/892م):

- "أنساب الأشراف"، تحقيق سهيل زكار، ورياض زركلي، دار الفكر، القاهرة، 417هـ.

- "فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987م.

18. البنداري، قوام الدين الفتح بن علي (ت القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي):

- "سنا البرق الشامي"، (تلخيص البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني)، ج1، تحقيق، رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

19. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت458هـ/1066م):

- "دلائل النبوة"، عبد المعطي قلعجي **الناشر**، 7 أجزاء، ط1، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، 1408هـ/ 1988م.

20. الترمذي، محمد بن عيسى(ت279هـ/892م):

- "الجامع الصحيح أو سنن الترمذي"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ب.ت.

21. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 874هـ/1469م):

- "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة و الطباعة والنشر، القاهرة، ب.ت.

22. التلمساني، محمد بن أحمد العقباني (ت 811هـ/1409):

- "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر، وتغيير المناكر"، تحقيق علي الشنوفي، جامعة اكريكد، فرنسا، 1967م.

23. التوحيدي، أبو حيان (ت400هـ/1010م):

- البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلاني، ق2، ج3، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء، 1964م.

24. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (ت 728هـ/1327م):

- "الصارم المسلول على شاتم الرسول"، دار الكتب العلمية، بيروت،1398هـ.
- "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1418هـ.

25. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت 429هـ/1037م):

- "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.

26. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(ت 256هـ/ 868م):

- "رسائل"، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانكي، القاهرة، 1964م.
- "البيان والتبيين"، تحقيق عبد السلام هارون، ج3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968م.

27. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت 614هـ/1217م):

- "الرحلة المسماه تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب، المصري، بيروت– مصر.

28. الجهشياري، محمد بن عبدوس (ت 331هـ/943م):

- "الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1357هـ.

29. الجواليقي، موهوب بن أحمد(ت540هـ/1144م):

- "المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم"، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1969م.

30. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597هـ/1200م):

- "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك"، 17جزء، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، بيروت، 1992م.

31. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد (ت 354هـ/965م):

- "مشاهير علماء الأمصار"، تحقيق فلايشهمر دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

32. ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت 799هـ/1377م):

- "تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ج(1) سنة 1976م، ج(2) سنة 1982م، ج(3) سنة 1986م.

33. ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد (ت 852هـ/1448م):

- "الدررالكامنة في أعيان المائة الثامنة"، تحقيق محمد سيد جاد الحق، بيروت، ب.ت.
- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي،ج6، دار الجليل، بيروت، 1992م.

34. الحريري، أحمد بن علي، (ت 926هـ/1519م):

- "الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين"، تحقيق سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، 1980م.

35. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (ت 456هـ/1064م):

- "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، بيروت، 1975م، ب.ت.
- المحلي، تحقيق محمد بن منير الدمشقي، مطبعة المنيرية، ج11، القاهرة، 1937م.

36. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ/1228م):

- "معجم البلدان"، 7أجزاء، ط2، دار صادر، بيروت، 1416هـ/1995م.
- "التاريخ المنصوري"، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، تحقيق أبو العيد دودو، مراجعة عدنان درويش، مطبعة الحجاز، دمشق، 1981م.

37. الحميري، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي (ت 634هـ/1237م)

- الاكتفاء، ج2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ.

38. ابن حنبل، أحمد (ت241هـ/855م):

- "المسند"، شرحه وضع فهارسه أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ب.ت.

39. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت 876هـ/1471م):

- "شفاء القلوب في أخبار بني أيوب"، تحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، 1996م.

40. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت 380هـ/993م):

- "المسالك والممالك"، تحقيق دي جويه، مطبعة بريل ليدن، 1889م.

41. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1405م):

- "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

42. ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282):

- "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968م.

43. أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت 275هـ/888م):

- "السنن"، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1994م.

44. الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت 282هـ/894م):

- الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط1،دار إحياء الكتب العربي – عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1960م.

45. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م):

- "تذكرة الحفاظ"، طبعة 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

تاريخ الإسلام و َو َفيات المشاهير و َ الأعلام"، **تحقيق**شار عو ّاد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2003م.

- "سير أعلام النبلاء"،17جزء، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط1، دار الفكر، بيروت، 1997م.

- "العبر في خبر من غبر"، 4أجزاء، حققه وضبطه أب هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.

46. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت 721هـ/1321م):

- "مختار الصحاح"، تحقيق محمود خاطر، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م.

47. الزبيدي، أبو الفيضي محب الدين محمد مرتضي الحسيني الواسطي (ت 1206هـ/1791م):

- "تاج العروس من جواهر القاموس"، المطبعة الخيرية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1306هـ.

48. سبط ابن الجوزي، أبو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي (ت 654هـ/ 1256م):

- "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان"، ج8، ق1، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، 1951م.

49. السبكي، أبي نصر عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ/1369م):

- "طبقات الشافعية الكبرى"، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود الطناحي، ط2، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، القاهرة، 1992م.

50. السرفسي، محمد بن أحمد (483هـ/1090م):

- "شرح كتاب السير الكبير"، محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق صلاح الدين المنجد، معهد المخطوطات، ج5، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1971م.

51. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت 230هـ/844م):

- "الطبقات الكبرى"، 15 جزء، دار صادر، بيروت، ب.ت..

52. السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581هـ/1185م):

- "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام"، ج4، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1978م.

53. الشامي، محمد بن يوسف الصالحي (ت 942هـ/1535م)

- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، ج6، ط1، تحقيق عادل عبد الموجودو علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.

54. ابن شاهنشاه، محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي (ت 617هـ/1220م):

- "مضمار الحقائق وسر الخلائق"، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ب.ت.

55. ابن الشحنة، أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد، (ت 815هـ/1412م):

- "الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب"، وقف على طبعه وعلق حواشيه يوسف بن اليان سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1909م.

56. ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم(ت 684هـ/1258م):

- "الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة"، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1992م.
- "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" (سيرة صلاح الدين) تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة الدار المصرية، القاهرة، 1964م.

57. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ/1153م):
- "الملل والنحل" تقديم إعداد عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة، 1977م، ب.ت.

58. الشعراني، أبو سعيد (ت898هـ/1493م):
- "مختصر سياسة الحروب"، تحقيق عبد الرؤوف عون ومراجعة مصطفى زيادة، المدرسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

59. الشيرازي، إبراهيم بن علي بن يوسف (ت 476هـ/1083م):
- "طبقات الفقهاء"، تحقيق خليل الميس، دار القلم، بيروت، ب.ت.

60. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م):
- "تاريخ الرسل والملوك"، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1939م.
- جامع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، 1955.

61. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت 872هـ/1467م):
- "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، نشره بولس راديس، مطبعة الجمهورية، باريس، 1894م.

62. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت 463هـ/1071م):
- "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، تحقيق علي محمد البجاوي، 4 أجزاء، ط1، دار الجيل، بيروت 1412 هـ / 1992م.

63. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت 187هـ/803م):
- "فتوح مصر والمغرب وأخبارها"، تحقيق محمد الحجيري، ط1، دار الفكر، بيروت، 1996م.

64. ابن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد(ت 643هـ/1245م):

- "فضائل الشيخ الإمام العالم الزاهد أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي"، تحقيق الحافظ، ضمن كتابه المدرسة العمرية، ط1، دار الفكر، دمشق، 2000م.

65. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ/1261م):

- "بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، ط1، دار الفكر، بيروت، 1988م.
- "زبدة الحلب من تاريخ حلب"، تحقيق سامي الدهان، دمشق، 1968م.

66. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله،(ت571هـ/1175م):

- "تهذيب تاريخ دمشق الكبير"، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران، ج2، ط3، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1987م.

67. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت395هـ/1005م):

- "جمهرة الأمثال"، 2 جزء، دار الفكر،بيروت.

68. العليمي، مجير الدين الحنبلي (ت 927هـ/1520م):

- "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، جزءان، الجزء الأول تحقيق عدنان يونس أبو تبانة، والجزء الثاني تحقيق محمود الكعابنة، ط1، مكتبة دنيس، عمان، 1999م.

69. ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي (ت1089هـ/1678م):

- "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، 8أجزاء، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ب.ت.

70. الأصفهاني، عماد الدين الكاتب محمد بن صفي الدين محمد بن حامد (ت 597هـ/ 1200م):

- "الفتح القسي في الفتح القدسي"، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

71. العمري، ابن فضل الله (ت 749هـ/1349م):

- مسالك الإبصار في ممالك الأنصار، ج12، تحقيق احمد زكي باشا، طبعة مصر، 1924م.

72. العيني، بدر الدين الحنفي محمود بن أحمد بن موسى(ت855هـ/1451م):

- "عمدة القارئ شرح صحيح البخاري"، دار الطباعة المنيرية، ج14، القاهرة، بدون تاريخ.

73. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (ت 732هـ/1331م):

- "المختصر في أخبار البشر"، جزءان، علق عليه ووضع حواشيه محمود ديوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- "تقويم البلدان"، اعتنى بتصحيحه مطبعة رينود، والبارون ماك كوكين ريسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1840م.

74. ابن الفراء، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف المعروف بـ ابن الفراء (ت458هـ/1066م):

- "رسل الملوك ومن يصلح للرسالة"، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947م.
- "طبقات الحنابلة"، تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ج1، القاهرة، 1952م.

75. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 170هـ/786م):

- "العين"، تحقيقمهدي المخزومي، وا إبراهيم السامرائي، ج2، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، 1984م.

76. الفهري، محمد بن محمد (ت721هـ/1321م):

- "سراج الملوك:، ط1، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، 1935م.

77. ابن قاضي شهبة، أبو الفضل بدر الدين محمد بن تقي الدين بن قاضي شهبة الاسدي الشافعي المتوفى سنة (874هـ/1469م):

- "الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود ابن زنكي)"، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

78. القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت684هـ/1285م):

- "الذخيرة"، تحقيق سعيد أعراب الأجزاء 3 – 5، 7، 9 – 12، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1994م عدد الأجزاء 14.

79. ابن القلانسي، أبي يعلي حمزة (ت 555هـ/1160م):

- "ذيل تاريخ دمشق"، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1908م.

80. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ت 821هـ/1418م):

- "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، دار الكتب المصرية، 1963م.
- "مآثر الأناقة في معالم الخلافة"، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2. مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1985م.
- "الجندية والسلم"، مطبعة الرسالة، دار المعرفة، القاهرة، 1960م. -"أثار البلاد وأخبار العباد"، دار صادر، دار بيروت، 1960م.

81. ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ/1351م):

- "أعلام الموقعين عن رب العالمين"، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ج3، دار الجليل، بيروت، 1973م.

82. ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م):

- "البداية والنهاية"، مكتبة المعارف بيروت، ب.ت.
- السيرة النبوية"، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1395 هـ /1976م.

83. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450هـ/ 1058م):

- "الأحكام السلطانية والولايات الدينية"، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1973م.

84. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 354هـ/965م):

- "التنبيه والإشراف"، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981م.
- "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 2 جزء، دار الفكر، بيروت، ب. ت.

85. المرزوقي، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت421 هـ/1030م):

- "شرح ديوان الحماسة"، تحقيق غريد الشيخ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1424 هـ/ 2003م.

86. مسلم، أبي الحسين بن الحجاج القشيري (ت 261هـ/874م):

- "صحيح مسلم"، بشرح النووي، ج16، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت، 1972.

87. المقدسي البشاروي، أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت 387هـ/ 997):

- "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ط1، لندن، 1906م.
- "البدء والتاريخ"، 6 أجزاء، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ب.ت.

88. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ/1441م):

- "السلوك لمعرفة دول الملوك"، تحقيق محمد علي بيضون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- "اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا"، جزءان، تحقيق محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1971م.
- إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، ط1، ج1 – ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م.

89. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت 711هـ/ 1311م):

- "لسان العرب" ، ط 1، دار صادر، بيروت، ب.ت.

90. ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي الكناني الشير ازي (ت 584هـ/1188م):

- "كتاب الإعتبار"، حرره فيليب حتى ،مطبعة جامعة برستون، الولايات المتحدة، 1930، والدار المتحدة، 1986م،

91. ناصر خسرو:

- "سفر نامه"، ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب، ج1، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت.

92. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1332م):

- "نهاية الأرب في فنون الأدب"، 31جزء، مركز تحقيق التراث، القاهرة، 1992م.
- الغضبان ، منير ، المنهج الحركي في السيرة النبوية ، ط1، دار النشر ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1998م .

93. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ/1277م):

- "المجموع شرح المهذب"، دار الفكر، طبعة كاملة معها تكملة السبكي والمطيعي، ب.ت.

94. النيسابوري، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت319هـ/931م):

- "الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف"، 11 مجلد، تحقيق أبو حماد صغير أحمد بن محمد حنيف، دار طيبة، الرياض، السعودية،ط1، 1405 هـ/ 1985م.

95. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت 213هـ/828م):

- "السيرة النبوية"، تحقيقمصطفى السقا وا إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، 6 أجزاء، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1955م.

96. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت 697هـ/1297م):

- "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، تحقيق جمال الدين الشيال، ج1، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1953م.

97. ابن الوردي، زين الدين عمر ابن المظفر بن أبي الفوارس (ت 749هـ/1348م):

- "تتمة المختصر في أخبار البشر"، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط1، دار المعرفة بيروت، 1970م.

98. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت284هـ/897م):

- "البلدان"، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

ثانياً : المصادر الأجنبية المترجمة.

99. دانيال الراهب:

- "رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة، 1106-1107م"، ترجمة: سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، ط1، د.ف، عمان 1992م.

100. سايولف:

- "رحلة الحاج سايولف في بيت المقدس والأراضي المقدسة1102-1103م"، ترجمة سعيد البيشاوي، ط1، دار الشروق، عمان الأردن، 1997م.

101. الشارتري، فوشي:

- "الاستيطان الفرنجة في بيت فلسطين تاريخ الحملة إلى القدس (1095-1127)"، ترجمة قاسم عبده قاسم، ط1، دار الشروق، القاهرة، 2001م.

102. الصوري، وليم:

- "الحروب (1094-1184م)"، ج3، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.

- "الأعمال المنجزة فيما وراء البحار"، ترجمة: سهيل زكار ط1، دار الفكر 1990م.

103. مؤرخ مجهول:

- "الحملة الثلاثة- صلاح الدين وريتشارد"، ج1، ترجمة حسن حبشي،الهيئة المصر ية للكتاب، القاهرة، 2000م.

- "أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس"، ترجمة حسن حبشي، القاهرة دار الفكر العربي، د.ط 1958م.

ثالثاً : المراجع العربية.

104. "الموسوعة الفقهية الكويتية"، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، 45 جزء، الكويت.

105. إبراهيم: حسن محمد:

- "جغرافية أوراسيا دراسة إقليمية مقارنة بمظاهرها الطبيعية والبشرية"، مؤسسة الجامعة، ط1، 2004م.

106. الأعرجي، محمد حسين:

- "جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية"، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، 1998م.

107. البرهاوي، رعد محمود:

- "العيون والجواسيس في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ إلى نهاية العصر الأموي"، الكتاب الثقافي، اربد– الأردن، 2005م.

108. البهيني، عبد المجيد:

- "وقفات في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب "، الطبعة الأولى، مطبعة الكرامة، الرباط، المغرب، 2005م.

109. حسن، زكي محمد:

- "الرحالة المسلمون في العصور الوسطى" القاهرة، بدون تار يخ.

110. حسين، حسن محمد:

- "الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين"، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1986م.

111. زيدان، جرجي:

- "تاريخ التمدن الإسلامي"، منشورات، دار مكتبة الحياة، مؤسسة خليفة للطباعة، بيروت، 1967م.

112. سعداوي، نظير حسان:

- "ثلاثة من مؤرخي الحروب "، ط1، القاهرة، 1957م.

113. العارف، عارف:

- "المفصل في تاريخ القدس"، ط1، مكتبة الأندلس، القدس، 1381هـ/1961م.

114. عبد الباقي، محمد فؤاد:

- "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"، طبعة 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، منقول عن طبعة دار الكتب المصرية، 1945م.

115. عبد الوهاب، حسين حسن:

- "أثر العوامل الجغرافية على الحروب منذ الحملة الأولى حتى معركة حطين (1097-1187م/490-583هـ)" ضمن كتاب مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب ، دار المعرفة الجامعية، 1997م.

116. العدوي، إبراهيم:

- "مصر الإسلامية"، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، 1975م.

117. علي، جواد:

- "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، 10 أجزاء، ط4، دار الساقي، 1422هـ/ 2001م.

118. علي، محمد كرد:

- "خطط الشام"، ج5، مطبعة الترقي، دمشق، 1925م.

119. العمري، بريك بن محمد بريك أبو مايلة:

- "غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية"، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية **ط1**، 1424هـ/2004م.

120. فوزي، فاروق عمر:

- "الخلافة العباسية السقوط والانهيار"، ج2، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، رام الله- فلسطين، 1998م.

121. القاسم، محمد:

- "الزاهر في معاني كلمات الناس"، تحقيق حاتم صالح الضامن، ج1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.

122. كنعان، محمد بن أحمد:

- "تاريخ الدولة العباسية وما رافقها من الممالك"، ق1، خلاصة تاريخ ابن كثير، ط1، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، 1998م.

123. محمود، علي السيد علي:

- "العلاقات الاقتصادية بين المسلمين و الفرنجة"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، 1996م.

124. مرسي، محمد منير:

- "التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية"، عالم الكتب، طبعة مزيدة ومنقحة 1425هـ/ 2005م.

125. مشرفة، عطية مصطفى:

- "نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين"، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

126. مصطفى، شاكر:

- "دولة بني العباس (132- 247هـ/750- 861م)"،ج2، ط2، منشورات شركة النور للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة.

127. الوفي، حارث لطفي:

- "المخادعة ومعاركها"، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1990م.

128. يحيى وحميدة، فوزي أمين و فتحي سالم:

- "تاريخ الدولة العباسية- العصر العباسي الثاني (222- 656هـ/840- 1258م)"، ج2، ط1، دار الفكر، عمان- الأردن، 2010م.

129. يوسف، جوزيف نسيم:

- "العدوان الفرنجة على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة"، الإسكندرية، 1984م.

رابعاً: المراجع الأجنبية المترجمة.

130. بدون مؤلف:

- "الجغرافية العربية حتى نهاية القرن العاشر الميلادي"، ترجمة صالح فليح الهيثي وخلدون داوود صبري، جامعة بغداد، بغداد، 1990م.

131. دافيدكان:

- "الاستخبارات"، ترجمة عبد اللطيف أفيوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982م.

132. دروزي:

- "تاريخ مسلمي اسبانيا"، ترجمة حسن حبشي، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

133. رنسيمان، ستيفن:

- "الحضارة البيزنطية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ومراجعة زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1961م.
- "رحلات الحج إلى فلسطين فيما يلي قبل عام 1095م"، تعليق محمد مؤنس، ضمن كتاب تاريخ الحروب ، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1 ،مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.

134. زابوروف، ميخائيل:

- "الفرنجة في الشرق"، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986م.

135. ساكر، هاري :

- "عظمة بابل"، ترجمة عامر سليمان إبراهيم، دار الكتب، الموصل، 1979م.

136. سان توزو:

- "فن الحرب"، إعداد عمر حليق، مؤسسة الحياة للتأليف والنشر، بيروت، 1969م.

137. سميث، جوناثان رايلي:

- "الاسبتارية"، فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص 1050- 1310، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مركز الدراسات العسكرية دمشق، 1984م.

138. شير، أدي:

- "الألفاظ الفارسية المعربة"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1908، ص160، محمد التونجي، المعجم الذهبي دار العلم للملايين، ط1، 1969، بيروت.

139. كلاوزفيتز، كارل فون:

- "الوجيز في الحرب"، ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1974م.

140. مونتجمري، برنارد:

- "الحرب عبر التاريخ"، تعريب فتحي عبد الله النمر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1971م.

خامساً : الرسائل العلمية.

141. الجزار، هاني فخري:

- "النظام العسكري في دولة المماليك (648 – 932هـ/ 1250– 1517م)"، رسالة ماجستير، إشراف أ. د. رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية، غزة. فلسطين، 2007م.

142. الحربي، مشيط عبد الله:

- "الحيل والخدع العسكرية في الحروب (492–690هـ/1099–1291م)"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، 2008م.

143. حشيش، رياض صالح:

- "الحركة الصوفية في بلاد الشام خلال الحروب (492– 690هـ/ 1098– 1291م)"، رسالة ماجستير، إشراف د. رياض مصطفى شاهين، الجامعة الإسلامية، غزة – فلسطين، 2005م.

144. خميس، إبراهيم:

- "العلاقات السياسية بين جماعة الفرسان الداوية والمسلمين في مصر والشام (1193م– 1291م/ 589هـ– 690هـ)"، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1987م.

145. عوض، محمد مؤنس أحمد:

- "التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلام الشام في عصر الحروب "، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1984م.

سادساً : الدوريات.

146. توفيق، عمر كمال:

- "المؤرخ وليم الصوري"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مجلد (21)، عام 1967م.

147. حسين، محسن محمد:

- "جيش صلاح الدين"، مجلة المورد، مجلد(16) عدد(3) 1981م، بغداد.
- "مسؤولية صلاح الدين عن فشل حصار بيروت"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلد (7)، العدد (6)، الكويت، 1987م.

148. صباغ، ميخائيل:

- "مسابقة البر ق والغمام في سعادة الحمام"، رسالة منشورة في مجلة المورد البغدادية، نشر حكمت توماس، مجلد2، عدد 3، ص144.

149. الطيان ومراياتي، محمد ومحمد:

- "مقاصد القصول المترجمة عن حل الترجمة لابن دنينير اللخمي (627 هـ)"، المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، مجلة التاريخ العربي، دمشق (ص: 13449) http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/ADAD4partie13.htm

150. علي ياسين:

- "صمود الأشوريين ضد الأورارتو خلال الألف الأول قبل الميلاد"، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد16، 1994م.

151. نغش، محمد:

- "الرسائل الحربية في عصر الدولة الأيوبية"، مجلة الجامعة الإسلامية، عدد 55-191/56، المدينة المنورة.

152. نيكلسون، روبرت.ل:

- "تطور الدويلات اللاتينية"، ترجمة عبد الرحمن المغربي ضمن بحوث تاريخ الحروب ، فصول مختارة، تحرير سعيد عبد الله البيشاوي، محمد مؤنس عوض، بإشراف: كينيث ستون، ط1، مطبعة بيت المقدس، رام الله، 2004م.

153. الهروي:

- "التذكرة الهروية في الجيل الحربية"، نشر جانبين طومين سورديل Janine Thomine Sourdel نشرة الدراسات الشرقية عدد 17، 1961 - 1962م

سابعاً : المراجع الانجليزية.

154. King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931, pp. 125-126.

155. Mayer, H.E, studies in the History of Queen Melisende of Jerusalem, in Dumbarton Oaks papers. XXVI, 1972, P67 – 68

156. Poger of Hovden, The Annals of Roger de Hoveden, 2 Vols, London, 1853, vol.II, p.84.

157. Prawer, J, Histoire du royaume latinde Jrusalem, paris, 1969, t.1. p.293-294.

158. Stevenson, The crusaders in the East, Cambridge, 1907, p. 136 et 147. منقول عن عبد المجيد بهيني، ص30

159. Wright, Thomas, The Travels of seawulf A D 1100 and 1103, in Early Travels in Palestine, London, 1841, P. 36.

ثامناً : المراجع الفرنسية.

160. Bihini, A., les aspects et les caract ristiques du Gihad en Syrie (al – sham) aux v. VI/XI – XII sicles, Th sede Doctorat (nouveaur gime), Universit Charles de Gaulle (lieu III), 1990, p. 164.

161. BiHINI,A,Les aspects et les caracteristiques du Gihaden Syrie (al – sam) aux v- VI/ XI – XII siecles, These de Doctorat (nouveau regime), lille, 1990, PL87.

162. e france de Jrusalem, paris, plon, 1934, t. 2, p138 et 154 – 160.

163. Sivan, E, "RFugi s Syro – Pales tiniens au temps des crosades", R. E. I, XXXV, 1967. P137.